غير مرخصة للطباعة

المحـور الثالث عشر

رسائل ترشيد الصحوة

٢٠١

البابا والإسـلام

رد علمي على البابا بنديكت السادس عشر

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة تجريبية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عائشةَ أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اختُلف فيه من الحقِّ بإذنك؛ إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم**». رواه مسلم.

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

معركةٌ فُرِضَت علينا

الحمد لله ربِّ العالَمِين، والصَّلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى من اتَّبع ما جاء به إلى يوم الدِّين.

(أمَّا بعد)

فقد فوجئت وفوجئ المسلمون كافَّة ـ بل فوجئ العالمُ كلُّه ـ في الغرب والشرق، بكلمات البابا بنديكت السادس عشر الَّتي أساءت إلى الإسلام، في عقيدته، وفي شريعته، وفي شخصِ نَبِيِّه ﷺ.

واعتبر المسلمون عامَّة: أنَّ هجوم البابا على الإسلام لم يكن له مُبَرِّر يقتضيه إطلاقًا؛ إذ لم يصدر من المسلمين شيءٌ يوجب توجيه هذه الهجمة إلى الإسلام.

بل الواقع أنَّ المسلمين في كلِّ مكان، جاملوا البابا منذ تنصيبه على كرسيِّ البابويَّة، وكنت ممَّن هنَّأ البابا على منصبه، وتلقيت بسبب ذلك نقدًا شديدًا، بل هجومًا صارخًا من بعض المسلمين.

QaradawiBooks.com

جاءت كلمات البابا في محاضرة علميَّة ألقاها في جامعة غوتنبورغ في جنوب ألمانيا، وهي الجامعة الَّتي كان يدرس فيها «علم الأديان» من قبل ـ ووصل فيها إلى درجة «الأستاذيَّة» ـ منذ سنة ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٧٧م.

فلم يكن هذا حديثًا إلى الجمهور، ولا حديثًا ورَّطه فيه صحفيٌّ مشاغب، ولا حديثًا عابرًا مع زوَّار له، بل كان محاضرة معدَّة مدروسة، تلقى على أكاديميِّين معتبرين، في جامعة محترمة، من أستاذ «بروفيسور» مُتَخَصِّص في مادِّته، مُمَارس لها سنين عدَّة، فهو يعي ما يقول، ويعني ما يقول.

وهو باعتباره «بابا» تُدقَّق كلماتُه، وتُرَاجع فكرتُها ومضامينها وأسلوبها، من قبل الأطر والأجهزة العلميَّة والفنِّيَّة من حوله، حتَّى لا يكون فيها ما يقتضي الاعتذار، أو التراجع منه، وهو ما لا يليق بالبابا الَّذي يُفْتَرض فيه «العصمة» في زعمهم.

ومع هذا كلِّه وقع البابا فيما وقع فيه، من أخطاءٍ وتجاوزات، لا يُعفيه من تبعتها وتحمُّل مسؤوليَّتها قوله: إنَّ المسلمين لم يفهموا كلامه! أو إنَّه لم يقصد بها الإساءة إلى المسلمين، إذ الكلام الصريح لا يبحث فيه عن النيَّة والقصد، فالنيَّة والقصد ترجع إلى صاحبها، وهل يأثم عند الله أو لا؟ ولكن المؤاخذة تكون على مضمون الكلام، وما يتضمَّنه من صوابٍ أو غلط، من قصدٍ أو شطط.

وكلُّ الَّذين سمعوا كلام البابا من المسلمين أو غير المسلمين: استنكروه واستشنعوه، لما فيه من تهجُّمٍ مقبوحٍ على الإسلام، ونبيُّه عليه الصلاة والسلام.

وليس معقولًا أنَّ كلَّ هؤلاء من أهل الشرق وأهل الغرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، لم يحسنوا فهم ما عناه البابا بكلامه. فالأصل في الكلام أنَّه يُقال ليُفهم مضمونه، ويُؤَثِّر في سامعه، وقد يتطلَّب منه عملًا

QaradawiBooks.com

يقوم به، إيجابًا أو سلبًا. ولا سيَّما كلام رجل كالبابا له منزلته الدِّينيَّة والعالَميَّة، وخصوصًا بين أتباعه من الكاثوليك، الَّذين يُضفون عليه القداسة!

أجل، لم يكن هناك أيُّ توتر بين البابا وأيِّ فئة من المسلمين، ولا وُجِدَ باعثٌ ظاهرٌ يدعو إلى رمي هذه القذائف، إلَّا أن يكون البابا قد أراد أنْ يهدي إلى الرئيس الأمريكي بوش ـ ومعه اليمين المسيحي المتصهين ـ هديَّة تشدُّ أَزْرَه في محاربة الإسلام تحت عنوان «محاربة الإرهاب». فأراد البابا أنْ يمنحه غطاء دينيًّا ـ وإنْ كان كاثوليكيًّا ـ يسنده ويبرر تصرُّفاته في العراق وغيرها، ما دام يحارب الإسلام الَّذي يحمل بذور العنف في تعاليمه، والَّذي لم يجئْ نبيُّه إلَّا بالأشياء الشِّرِّيرة، واللاإنسانيَّة ومنها نشر دِينِه بالسَّيْف.

كما اتَّهم البابا الإسلام بأنَّه بفرضه الجهاد ـ أو الحرب المُقَدَّسة كما سمَّاها ـ يُنافي العقلَ، كما يُنافي الطبيعةَ الإلٰهيَّة.

وزعم البابا فيما نقله نقل المُقِرِّ له: أنَّ المشيئة الإلٰهيَّة عند المسلمين لا يَحُدُّها شيء، ولا يُقَيِّدها شيء، ولا بأيِّ نوع من المعقوليَّة.

واتَّكأ البابا على فقرة نقلها من كتاب للإمبراطور البيزنطي (الأرثوذوكسي): مانويل الثاني الَّذي نشره رجل الدِّين الألماني اللبناني الأصل ثيودور خوري: حوارات مع مسلم، «المحاورة السابعة» وهي فقرة مُسِفَّة غاية الإسفاف، تتَّسم بالجهل الفاضح، والتحامل الواضح على الإسلام.

وحين أظهر العالم الإسلامي غضبه على هذه الكلمات المسيئة، ومنها: ما أصدره الاتِّحاد العالَمي لعلماء المسلمين من بيانات[1]، زعم

(١) انظر: الملاحق في آخر الكتاب: ملحق (١)، وملحق (٢).

QaradawiBooks.com

البابا أنَّه ناقل، وكما يقول علماؤنا: ناقــل الكفر ليس بكافر. ولكنَّه نقل هذا الكلام مستشهدًا به، ولهذا لم يردَّ عليه.

من هنا كان علينا نحن أن نردَّ على الكلمات المثيرة الَّتي أساءت إلى عقيدة الإسلام، وإلى شريعة الإســلام، وإلى نبي الإسلام، وإلى كتاب الإسلام، وإلى حضارة الإسلام، وإلى أمَّة الإسلام.

وسيكون ردنا ردًّا علميًّا موضوعيًّا مُوَثَّقًا بالأدلَّة القاطعة من نصوص الإســلام ومن تاريخ أُمَّته، ومن كتاب القوم المُقَدَّس أيضًا، ليهلك من هلك عن بَيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة.

لا ننكــر أنَّ في لقــاء البابا في جامعــة غوتنبورغ بعــض الجوانب الإيجابيَّة لا بدَّ أن نُنَــوِّه بها، إحقاقًا للحق، وإنصافًــا للرجل، وقد علَّم الإسلام المســلم: أنَّه إذا غضب لم يُخْرِجْه غضبه عن الحقِّ، وإذا رَضِيَ لم يُدْخِلْه رضاه في الباطل، وقد قــال تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فقد ذكروا أنَّ البابا أكَّد على ضرورة تعميق أُطُر الحوار بين العالَمَيْن المسيحي والإسلامي، معتبرًا أنَّ العالم الغربي، قد فقد الاعتقاد بالله في خضم النفعيَّة العمليَّــة، (وأَزيد على هذا: وفي خِضَم المادِّيَّة الحِسِّــيَّة، والإباحيَّة البهيميَّة).

كما قالوا: إنَّ البابا دعا: الرئيس الألماني «هورسف كولر» إلى ضرورة أنْ تعمل الدولة الألمانيَّة على تحقيق اندماج أفضل للمسلمين المقيمين داخلها، محذِّرًا من الإفراط في التعقيدات تجاه أبناء الأقلِّيَّة المسلمة.

QaradawiBooks.com

فهذا لا يَسَــعُنا إلَّا أن نُقَدِّره للبابا ونشكره عليه. وقد علَّمنا دِينُنا **أنَّه**: «**لا يشكرُ اللهَ من لا يشكر النَّاس**»[١].

كما نُقَدِّر للبابا موقفــه المحافظ من التيارات الإباحيَّة المنتشــرة في الغرب اليــوم، والَّتي باركتها ـ للأســف ـ بعض الكنائــس، مثل: الزواج المِثْلي، وإباحة الإجهاض بإطلاق، ونزع أيدي الوالِدَيْن من تربية أولادهما. وهو ما وقف فيه الأزهر والجهات الإســلاميَّة المختلفة مع الفاتيكان في موقفٍ واحد، ضدَّ هذه الاتِّجاهات المُنْحَرِفة، وذلك في مؤتمر السُّكَّان في القاهرة ١٩٩٤م. ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م، وغيرهما.

ولكنَّا ننتقــد بقوَّة موقفه من الإســلام؛ الَّذي لا يقوم على أســاس منطقي أو علمي أو تاريخي، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع وينصر.

وإلى القارئ الكريم بياننا حول هذا الموضوع.

والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

الدوحة في: رمضان ١٤٢٧هـ

سبتمبر ٢٠٠٦م

(١) رواه أحمد (١٠٣٧٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤)، وصحَّحه، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الجزء المُتَعَلِّق بالإسلام
من محاضرة البابا

بعد حديث عن ذكرياته في الجامعة، وعلاقته بزملائه وغيرهم، قال البابا: «راودتْ كلُّ هذه الأفكار بالي لمَّا قرأت مُؤَخِّرًا القسم الَّذي نشره الأستاذ ثيودور الخوري «منستر» من الحوار الَّذي أجراه القيصر العلَّامة مانويل الثاني باليجيوس، وهو حوار يعـود تاريخه إلى ١٣٩١م في مجلة أنقرة الشـتويَّة، أجراه الإمبراطور مع مُتَعَلِّم فارسـي حول المَسِـيحيَّة والإسـلام وحقيقتيهما. ولعلَّ القيصر قد صاغ هذا الحوار خلال حصار القسطنطينيَّة بين ١٣٩٤و ١٤٠٢م.

وذلك ما يمكن أن يفهمنا لم جـاءت مداخلاته أكمل من مداخلات محاوره الفارسي، ويشمل الحوار: مجال التحريفات والإضافات العقديَّة كلها فـي التوراة والقرآن، وهـي تدور بالخصوص حـول صورة الربِّ وصورة الإنسان، وكما هي الحال دائمًا وبالضرورة تعرَّضت إلى العلاقة بين «الشـرائع الثلاثة» كما يقال، أو حول «سُـنَن الحياة الثلاثة»: العهد القديم والعهد الجديد والقرآن. لكنَّنِي لا أريد أنْ أتناول من هذه المسائل في محاضرتي إلَّا مسـألة واحدة ـ وهي تُعَدُّ بالأحرى مسألة هامشيَّة في بنية الحوار الَّذي دار بينهما ـ مسألة خلبت لبِّي بسبب صلتها مع غرض الإيمان والعقل، وإنِّي جاعلها منطلق تأمُّلاتي في العَرْض.

QaradawiBooks.com

ففي المناظرة السابعة الَّتي نشرها الأستاذ الخوري تطرَّق الإمبراطور إلى الكلام على مسألة الجهاد أو الحرب المُقَدَّسة، فالقيصر كان يعلم بكلِّ يقين أنَّ الآية (٢٥٦) من البقرة تقضي بأنْ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. وهي آية من السور الأولى الَّتي نزلت لمَّا كان مُحَمَّد ـ كما قال لنا العارفون ـ لا يزال عديم القوَّة وواقعًا تحت التهديد.

لكن القيصر بالطبع كان يعلم كذلك أن آيات أخرى من القرآن نزلت بعد ذلك، تتضمَّن تحديدات وتدقيقات أخرى حول الحرب المقدَّسة. ودون الدخول في الجزئيَّات، كالكلام على الفرق بين معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين، توجه الإمبراطور إلى محاوره بغلظة نعجب لها، غلظة تفاجئنا نحن الآن، سائلًا بكل بساطة عن القضيَّة المركزية الخاصَّة بالعلاقة بين الدِّين والعنف.

فقال: «أرني مع ذلك ما الجديد الَّذي أتى به مُحَمَّد؟ وسترى أنَّه لم يأتِ إلَّا بكلِّ ما هو شرٌّ وغير إنساني، مثل: أنَّه يوجب نشر العقيدة الَّتي يبشِّر بها بحدِّ السَّيْف».

ثُمَّ إنَّ القيصر واصل كلامه بعد تسديد هذه الضربة، ليُعَلِّل: لم يعتبر نشر العقيدة بالعنف مناقضًا للعقل؟ فذلك يعارض جوهر الله وجوهر النَّفْس. قال: «إنَّ الربَّ لا يحبُّ الدم، ولا يلائم العقل أنْ يعمل الإنسان عملًا يعارض جوهر الرب، فالعقيدة ثمرة النفوس، وليست من نتاج الأبدان، لذلك فمن أراد أنْ يدعو إنسانًا ليقوده إلى الإيمان، لا بدَّ أنْ يكون قادرًا على الكلمة الطيِّبة والفِكْر الصحيح لا على العنف والتهديد.

والإنسان لا يحتاج ليقنع نفسًا عاقلة إلى يده ولا إلى أدوات الضَّرْب أو إلى أيِّ أداةٍ يستطيع أن يُهدِّده بالقتل بواسطتها».

QaradawiBooks.com

والجملة الحاسمة في هذا الاستدلال ضدُّ تغيير عقيدة النَّاس بالعنف تنصُّ: «لا يلائم العقل أنْ يعمل الإنسان عملًا يعارض جوهر الربِّ».

وقد علَّق ناشر الحوار ثيودور الخوري على ذلك قائلًا: إنَّ هذه الجملة بيِّنة بنفسها عند القيصر، فهو بيزنطي نما في بيئة الفلسفة اليونانيَّة. أمَّا بالنسبة إلى العقيدة الإسلاميَّة فإنَّ الله مُطْلَقُ التعالي، وإرادته في حِلٍّ من كلِّ مقولاتنا حتَّى لو بلغ الأمر إلى مقولات المعقوليَّة. ثمَّ أيَّد الخوري تعليقه هذا مستشهدًا بإشارة المستشرق الفرنسي المشهور روجي أرنلداز إلى ما يراه ابن حزم، الَّذي يذهب إلى حدِّ اعتبار الله ليس قادرًا على أن يُخْلِف وعده فحَسْب؛ بل هو يذهب إلى القول بأنْ لا شيء عنده يوجب عليه أن يكشف وجه الحقيقة للبشر، ولو شاء الله لجعل الإنسان للأوثان عابدًا[1].

* * *

(١) من ترجمة الكاتب المعروف أبي يعرب المرزوقي لمحاضرة البابا، وقد أرسلها إلينا مشكورًا، مع تعليقاته القيمة على المحاضرة.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

تمهيد
الكاثوليك والإسلام

إذا كان البابا بنديكت السادس عشر قد أساء في محاضراته إلى الإسلام، فليست هذه أوَّل مرَّة يسيء فيها الكاثوليك إلى الإسلام، ويتطاولون عليه، فقد حدث ذلك أكثر من مرَّة.

حدث من دول مثل فرنسا وإيطاليا، فرأينا تجبُّر فرنسا في استعمارها للجزائر، ومحاولتها طمس هُويَّتها، بحربها المستمرَّة على الإسلام واللغة العربيَّة، وهما الأساسان القويَّان لهُوِيَّة الشعب، وكم حوِّلت المساجد إلى كنائس أو متاحف، وكم... وكم...

ورأينا تجبُّر إيطاليا على الشعب الليبي في فترة استعمارها له، ومعاملته بكلِّ قسوةٍ وجبروت، وخصوصًا من قاوَموا الاستعمار، مثل عمر المختار ورفاقه.

وقبل ذلك بخمسمائة عام أو تزيد (سنة ١٥٩١م) ساهمت الكنيسة الكاثوليكيَّة مع الدولة الإسبانيَّة في إبادة المسلمين من بلاد الأندلس في إسبانيا، عن طريق التنصير أو القتل أو الهجرة غير الآمنة الَّتي لا تُوصل إلى بلدٍ إسلامي، وانتهى الوجود الإسلامي نهائيًّا من الأندلس، بعد أنْ ظلُّوا فيها نحو ثمانية قرون، أقاموا فيها حضارة شامخة متوازنة، تعلَّمت منها أوربا، واقتبست من نورها ما ساعدها على الخروج من ظلمات القرون الوُسْطى.

QaradawiBooks.com

ورأينا في العصر الحديث: الَّذين يُصَوِّرون الإسلام على غير حقيقته، ويُشَــوِّهون صورته لجماهير المجتمعات الغربيَّة، ليُنَفِّروهم منه، وكتب في ذلك من كتب من المستشــرقين والسياســيِّين ـ ناهيك بالمُبَشِّرين ـ وغيرهم، وصبُّوا جام حِقْدهم على الإســلام، مِنْ كل مَنْ لا يزال يحمل في إهابه الروح الصَّلِيبيَّة!

ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تعرض الفيلسوف الفرنسي المعروف «رينان» للإسلام بالنقد العنيف، في محاضرة قريبة في اتِّجاهها من محاضرة البابا، في جامعة «الســوربون» في باريس، عن «الإســلام والعلم»، ردَّ عليها الســيد جمال الدِّين الأفغاني ردًّا موجَزًا، وردَّ عليها الإمام مُحَمَّد عبده ردًّا أكثر بيانًا وتفصيلًا.

وكان ممَّا قاله رينان في محاضرته: «إنَّ الإســلام لا يُشَجِّع الجهود العلميَّة، بل هو عائق لها، بما فيه من اعتقاد للغيبيَّات، وخوارقِ العادات، وإيمانٍ تامٍّ بالقضاء والقدر».

وقد صوَّر رينان عقيدة التوحيد ـ الَّتي هي جوهر العقيدة الإسلاميَّة ـ بأنَّها تُؤَدِّي إلى حَيْرة المســلم! كما أنَّها تَحُطُّ به ـ باعتباره إنسانًا ـ إلى أسفل الدَّرَك!

والحقيقــة أنَّ عقيدة التوحيــد هي الَّتي تحرِّر الإنســان من الخوف والذل واليأس والكآبة والقلق، وتضع يد المسلم في يد الله، وتمده بقوَّة خارقة، حين يعلم أنَّ الله معه، وأنَّه قريب منه، وأنَّه يعلم ســرَّه ونجواه، وأنَّه حافظــه وحاميه، فيشــعر بالأمــن والســكينة الَّتي لا يشــعر بها الجاحدون، ولا الشاكُّون، ولا المشركون، والقرآن يعتبر الشرك انحطاطًا

QaradawiBooks.com

بالإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

والقول بأنَّ الإسلام يرفع الإلٰه عن الإنسان في علاء لا نهاية له! قولٌ صحيحٌ في ذاته، ولكنَّه لا يُمَثِّل الحقيقة كُلَّها. فإنَّ الله هو الكبير المتعال، والإسلام يُفَرِّق بوضوح بين المخلوق والخالق، وبين الباقي والفاني، وبين المحدود والمُطْلَق، فهو تعالى «فوق عباده» وهو «الربُّ الأعلى» ولكنَّه ـ مع هذا ـ قريبٌ من عباده: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

كما فسَّر «رينان» عقيدة القضاء والقدر، بأنَّها تعني الجبر، وسلبه إرادة الإنسان ومسؤوليَّته عن عمله، وهو موضوعٌ طويلُ الذيول، كثير التفاريع، اختلفت فيه الأديان والفلسفات قديمًا وحديثًا، ومن رجع فيه إلى القرآن يجده بوضوح يحمل الإنسان تبعة ما يعمل، يقول القرآن: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وبعد رينان جاء فرنسي كاثوليكي آخر، ليُسيء إلى الإسلام وأُمَّته وحضارته، بمقالةٍ يكتبها، تنشرها الصحف الفرنسيَّة، ذلكم هو مسيو «هانوتو» المستشرق الفرنسي، ومستشار وزارة الاستعماريَّة الفرنسيَّة.

QaradawiBooks.com

والَّتي ترجمت مقالته ونشرتها صحيفة «المُؤَيَّد»، الَّتي كان يصدرها الصحفي الشهير الشيخ علي يوسف، والَّتي كان لنشرها صدًى واسعٌ في النَّاس، أثار الرأي العام الإسلامي في مصر، وكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر (١٩٠٠م) الموافق (١٣١٧هـ).

وقد تصدَّى للردِّ على هذا النقد العنيف: أشهر المُتَحَدِّثين عن الإسلام وأبلغهم في الدفاع عن حِماه، في ذلك الزمن: الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده، الَّذي ردَّ على «هانوتو» بمقالاتٍ ثلاث، اتَّسمت بسَعَة العلم، وعُمق الفكر، وقوَّة الحُجَّة، ونصاعة البيان، والجمع بين الأصالة والتجديد، وقوَّة الاطِّلاع على الثقافة الإسلاميَّة والثقافة الغربيَّة بمدارسها المختلفة. وقد كانت مقالات مُحَمَّد عبده: حديث النَّاس، وشغلهم في ذلك الوقت.

تَكَلَّم «هانوتو» في مقاله عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمَسِيحيَّة، وتُحَقِّق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر، وقال: «إنَّ فرنسا قد صارت بكلِّ مكانٍ في صلة مع الإسلام، بل صارت صدرَ الإسلام وكبِدَه! فالإسلام يحيط بها في إفريقيا ويمتد في آسيا إلى الصين، وهو قائمٌ بأوربا في الآستانة حيث عجزت الشعوب المسيحيَّة عن استئصال جُرْثُومته من هذا الركن المَنِيع الَّذي يحكم منه على البحار الشرقيَّة، ويفصل الدول الغربيَّة بعضها عن بعض».

ثم قال: إنَّ المسلمين في سائر أقطار الأرض يتَّجهون إلى الكعبة وتجمعهم رابطة واحدة، وأنَّهم يكرهون الدول المسيحيَّة الَّتي تحتلُّهم. فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المَسِيحيَّة، حيث حلُّوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن. وقال: إنَّ المُتَعَصِّبين من

QaradawiBooks.com

المسلمين مثل «السنوسي»، تقوم عقيدتهم على كفاح غير المؤمنين، وعلى كراهية المَدَنِيَّة الحاضرة. وقد لبثوا زمنًا مديدًا لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العَلِيَّة بسبب ما بينها وبين المسيحيَّة من علاقات. وانتهى من هذا العرض إلى قوله: توجد بالآستانة نفْسِها وبالشَّام وبلاد العرب ومُرَّاكش عصابة خَفِيَّة، ومؤامرة سِرِّيَّة تُحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب، ويخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطَّرْف.

ثُمَّ دخل هانوتو في موازنة بين الدِّينين، فقال: إنَّ المسائل الأساسيَّة في كلِّ دِين هي الَّتي ترتبط بالقَدَر والمغفرة والحساب.

وقال: إنَّ نظرة الأديان والمُفَكِّرين إلى هذه المسائل تتمثَّل في اتِّجاهين: اتِّجاه يقول بتناهي الربوبيَّة في العظمة والعلوِّ، ويجعل الإنسان في حضيض الضعف ودرك الوهن. واتِّجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان، ويُخَوِّله حقَّ القُرْبى من الذات الإلٰهيَّة، بما فُطِرَ عليه من إيمانٍ وإرادة، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات.

ثم قال هانوتو: إنَّ نتيجة الاتِّجاه الأوَّل هو تحريض الإنسان على إغفال شؤون نَفْسِه، وبثِّ القنوط في قلبه، وتثبيط هِمَّته.

أمَّا الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني، فهو يُؤَدِّي إلى الجِلاد والعمل.

ومثَّل للاتِّجاه الأوَّل بالديانة البوذيَّة، كما مثَّل للاتِّجاه الثاني بالثقافة اليونانيَّة. ثمَّ قال: إنَّ المَسِيحيَّة هي الوارثة لآثار الآريين، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب الساميَّة، وإن كانت مُشْتَقَّة منها.

أمَّا الإسلام فهو متأثِّر بالمذهب السامي، ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك، ويرفع الإلٰه عنه في علاء لا نهاية له. وأصول الثالوث

QaradawiBooks.com

السِّرِّي مُشْتَقَّة من ضرورة وجود إلهٍ بشريٍّ يمحو ذنب الجنس البشري، ويحمل المسيحي على إتيان الأعمال الَّتي تقربه من الله. أمَّا الإسلام فهو يتمسَّك بالوحدانيَّة، ويرفض ذلك، فيجعل المسلم كمن يهوي في الفضاء بحسَب ناموسٍ لا يتحوَّل، ولا يملك في ذلك من حيلةٍ غير متابعة الصلوات. فلفظ «الإسلام» معناه: الاستسلام لإرادة الله.

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسيِّين الفرنسيِّين في تصوُّر العلائق الَّتي تربطهم بالمسلمين. فالمسيو «كيمون» يعتقد أنَّ الإسلام جُذَام فشا بين النَّاس وأخذ يفتك بهم فتكًا ذريعًا، بل هو مرضٌ مُرِيع، وشللٌ عامٌّ، وجنونٌ ذهولي، يبعث على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلَّا ليسفك الدماء. وهو يرى المسلمين وحوشًا ضارية. ويعتقد أنَّ الواجب إبادة خُمُسِهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقَّة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح «مُحَمَّد» في متحف اللُّوفَر. والمسيو لوازون (القسُّ ياسنت سابقًا)، يعتقد أنَّ الإسلام هو الدِّين المسيحي مُحَسَّنًا ومُحَوَّرًا. فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدأً، وأسمى كعبًا من المَسِيحيَّة. وهناك فريقٌ ثالث يتوسَّط بين الفريقين، ويقول: إنَّ الإسلام قنطرة للأمم الإفريقيَّة، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنيَّة إلى ضفَّة المسيحيَّة.

ثمَّ قال هانوتو: إنَّ هذه الآراء المتباينة هي الَّتي أحدثت التناقض في أعمال فرنسا الاجتماعيَّة والسياسيَّة والإداريَّة. وطالب أن تقوم السياسة الاستعماريَّة على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلاميَّة وللإسلام»[1] اهـ.

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين (٣٢٦/٢) وما بعدها، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، وانظر أيضًا: الفكر الإسلامي الحديث وصلته =

QaradawiBooks.com

وقد ردَّ الشـــيخ الإمام مُحَمَّد عبده ـ كما ذكرنا ـ على هذه الدعاوى الظالمة والزائفة، بمنطقٍ علميٍّ موضوعيٍّ تاريخي ســـليم كلَّ الســـلامة، لا يســـتطيع أحدٌ أن يعترض عليـــه، ولا أن يجد فيه شـــائبة لتحامل أو تعصُّب، أو اتِّجاه عاطفي. ولا يتَّسع المجال هنا، لأورد هذا الردَّ النبيل، وأُحيل القارئ ليقرأه في موضعه، في تاريخ الأستاذ الإمام، كما أنَّه نشر منفردًا، وكذلك نقل منه وعقَّب عليه أســـتاذنا الدكتور مُحَمَّد البهي في كتابه القَيِّم: «الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي». وقد عقَّب على الجانب الفِكْـــرِي من مقالة «هانوتو». أمَّـــا ما نقله «كيمون» واتَّهاماته الفاجرة للإسلام، وافتراءاته على المســـلمين، واقتراحه تدمير الكعبة، ووضع قبر مُحَمَّد في متحف اللوفر، فهي لا تســـتحق أن يقف عليها عالم أو مفكر.

ولكنَّا سننقل عن الأســـتاذ الإمام في مقامٍ آخر ردَّه في قضيَّة مشابهة اتُّهِمَ فيها الإســـلام بأنَّه يضادُّ العلم والفلسفة، ولا يتسع لهما، كما تتسع النَّصرانيَّة، وذلك في ردِّه على فرح أنطون، ومَجَلَّة «الجامعة».

نسينا الماضي وفتحنا صفحة جديدة:

ومع هذه المرارات الَّتي تجرَّعناها مع الكاثوليك: رأى الكثيرون من المســـلمين ـ وخصوصًا من علمائهم ومُفَكِّريهـــم ودعاتهم ـ أن يفتحوا صفحة جديدة مع الكاثوليك خاصَّـــة، ومع النَّصارى عامَّة، وعقدت من حوالي أربعين ســـنة ندوات وحلقـــات ومؤتمرات للحوار الإســـلامي المسيحي، رحَّبنا به وفتحنا له صدورنا.

= بالاســـتعمار الغربي للدكتور محمد البهي صـ ١٠ ـ ١٥، ط ٢، ١٩٦٠م، وتاريخ الأستاذ الإمام (٤٠١/٢ ـ ٤٢٤)، نشر دار المنار، مصر، ط ١، ١٣٢٤هـ.

QaradawiBooks.com

ولم يكن ذلك منَّا موقفًا بعيدًا عن الديـــن، أو خارجًا على تعاليمه، مداهنة في ديننا، أو مجاملة لغيرنا. بل هو نصُّ ما أَمَرَ به دِينُنا في منهج الدعوة إلى الإســـلام، وهو الَّـــذي بيَّنته الآية الكريمـــة بكلماتها البليغة المُوجَزة من سورة النحل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالدَّعـــوة بالحكمة والموعظة الحســـنة تكون عادةً مـــع الموافقين. والجدال ـ «أو الحوار» ـ بالَّتي هي أحسن، تكون عادةً مع المُخَالِفين.

وقد ذهب وفدٌ من رابطة العالم الإسلامي بمكَّة المُكَرَّمة، على رأسه الأمين العـــام للرابطة الشـــيخ مُحَمَّد علي الحـــركان، للقـــاء الكرادلة والأســـاقفة في الفاتيكان، وكان في وفد الرابطة عالمان معروفان، هما: الدكتور معروف الدَّوَاليبي، والدكتور مُحَمَّد المبارك، وغيرهما.

وصدرت الحـــوارات والموضوعات الَّتي تناولهـــا المتحاورون في كتاب.

وصارت حـــوارات في ليبيا، وحـــوارات في مصـــر، وحوارات في غيرهما من البلدان العربيَّة والإسلاميَّة والأوربيَّة.

وشـــاركتُ في حوار مع أحبار الكنيسة فيما سُـــمِّيَ القمَّة الإسلاميَّة المَسِـــيحيَّة الأولى في روما في أكتوبـــر ٢٠٠١م، وفي القمـــة الثانية في برشلونة ٢٠٠٣م.

وقلنا: يجب أن ننسى ســـواد الماضي وظلامه وظلمه، ونعيش على حاضر جديد، ونتطلَّع إلى مستقبل أفضل، يسود فيه التفاهم والتسامح، بل التعاون بين الأديان الكتابيَّة بعضها وبعض.

QaradawiBooks.com

ولكن العالم المسيحي للأسف، لا تزال تسري في جنباته بقايا الرُّوح الصَّلِيبيَّة القديمة، وإن ظهرت في ثوبٍ جديد، وبأسلوبٍ جديد، اشتركت في ذلك المَسِيحيَّة الغربيَّة بكلِّ أطيافها ومذاهبها.

تجلَّى ذلك فيما سُمِّيَ «الحرب على الإرهاب»، وهو في الحقيقة الحرب على الإسلام، وعلى أُمَّة الإسلام.

وتجلَّى ذلك في التضييق على العمل الخيري، في كلِّ مكان، وعلى الدعوة الإسلاميَّة في أنحاء العالم، وعلى مسلمي أوربا وأمريكا، وأبرز مثل لذلك: قضيَّة الحجاب في فرنسا.

وتجلَّى ذلك أيضًا في الرسوم الدانماركيَّة الكاريكاتوريَّة المسيئة إلى رسول الإسلام، والبالغة في الإساءة والإسفاف حدًّا لا يمكن السكوت عليه.

ثمَّ فوجئنا أخيرًا بهذا الهجوم من أكبر شخصيَّة مسيحيَّة في العالم: بابا الفاتيكان، فهل هذه يا ترى عودة إلى الوراء؟ هل هي حرب صليبيَّة جديدة، كما قالها بوش يومًا، وإن اعتذر المعتذرون عنه بأنَّها سَبْقُ لسان؟

دوافع البابا إلى التطاول على الإسلام:

وقد تساءل الكثيرون عن «الدوافع» الحقيقيَّة وراء هذا الهجوم البابوي على نبيِّ الإسلام، وعلى عقيدته، وشريعته، وحضارته، وأُمَّته؟

وتعدَّدت الآراء في التفسير والتعليل، واختلفت في البرهنة والتدليل؛ لأنَّ النوايا الحقيقيَّة تُكِنُّها القلوب، والله وحده هو الَّذي يعلم ما تخفي الصدور، والبشر لهم الظواهر، والله يتولَّى السرائر.

QaradawiBooks.com

وقد لخَّص الأستاذ الدكتور عزُّ الدِّين إبراهيم المستشار في وزارة شؤون الرئاسة في «أبو ظبي»، ورئيس مجلس أمناء «دار زايد للثقافة الإسلاميَّة»، مقالات المُتَكَلِّمين والمُحَلِّلين لدوافع البابا تلخيصًا حسنًا، في دراسته الشاملة عن مقالة البابا، أو قل عن محاضرته، وأنا أنقله عنه هنا:

«أمَّا عن الدوافع، فقد قامت نظريَّات لا يمكن القطع بصحَّة أي منها، فالله وحده هو المطَّلع على النوايا. ومع ذلك فإنَّ كلًّا منها يلقي ظلالًا على الموقف وآثاره.

فهناك من يقول بأنَّ البابا يريد أنْ يغطي على ماضيه مع الحركة النازيَّة المعادية للصهيونيَّة، أو كما يقال ـ المعادية للساميَّة ـ فقد كان البابا ضمن الشبيبة الهتلريَّة في صباه، ثمَّ خدم في سلاح المشاة بالجيش النازي ووقع في الأسر. وهذا الانخراط في النازيَّة لا يمكن أن تنساه إسرائيل وحُمَاتها، وسوف تبرز هذه الورقة عند اللزوم إذا كان ذلك في مصلحتها، ولكنَّها يمكن أن تتناساه إذا خاصم الرجل الدِّين المواجه للصهيونيَّة وأتباعه، وهو ما يمكن القول بأنَّ المحاضرة قد قامت به.

وهناك من يقول بأنَّ المذهب الكاثوليكي في الولايات المتحدة يعاني من مشكلات أثرت على سمعته لدى المجتمع الأمريكي، فجاءت هذه المحاضرة لتجامل السياسة الأمريكيَّة وتعاضدها في حربها المسمَّاة أحيانًا بالحرب على الإرهاب، وأحيانًا أخرى معاداة الفاشيَّة الإسلاميَّة. فها هو الحبر الأعظم يقول ما تقوله السياسة من موقعه كأكاديمي لاهوتي قديم، ورأس للكنيسة الكاثوليكيَّة، ورئيس لدولة الفاتيكان، ويتوقَّع في مقابل ذلك ترميم سمعة الكنيسة في تلك الديار.

QaradawiBooks.com

وهناك من يقول بـأنَّ البابا لا يريد للوجود الإسـلامي في أوربا أن يتَّسع ويتثبَّت، وقد عبَّر عن ذلك صراحة في معارضته العلنيَّة، حينما كان «الكاردينـال جوزيف راتزنجر» لانضمـام تركيا المسـلمة إلى الاتِّحاد الأوربي باعتبار أنَّها تنتمي لحضارة غير متجانسة مع الغرب المسيحي.

وأخيرًا هناك من يقول بأنَّ البابا ينتمي إلى الفريق الكنسي الَّذي لا يُؤَيِّد الحوار الجادَّ مع الأديان، لأنَّ فيها تعطيلًا وتنكرًا لرسالة التبشير المَسِيحيَّة (انظر: جون سـتوت في كتابـه Christian Mission in The Modern World). ويستشـهد هؤلاء على هذه الدعوى بـأنَّ البابا بدأ فتـرة بابويَّته بنقل الكردينال البريطاني فيتز جيرالد من موقعـه في الفاتيكان إلى الخارج، وهو من أعلام الحوار في روما.

وإذا لـم نكن قد أكدنـا أيًّا من هـذه الدعاوى عن الدوافـع، فإننا لا نتصور أنَّ النَّاس سوف يسقطونها من حسابهم»[1].

وقد سمعتُ من عددٍ من الأوربيِّين المسلمين يؤكِّدون أنَّ دافع البابا هو خوفه ممَّا يرى من انتشار الإسلام في العالم بصفة عامَّة، وفي أوربا بصفة خاصَّة، فكان هجومُه الحادُّ والمفاجئ نوعًا من الدفاع الخفيِّ أمام ظاهرة انتشار الإسلام السِّلْمي.

نظرة في قصَّة الإمبراطور البيزنطي:

والحقيقة: أنَّ الباحـث المُدَقِّق في هـذه القصِّة (قصَّـة الإمبراطور البيزنطي ومحاوره) يجدها أقرب إلى التلفيق، منها إلى الحقيقة التاريخيَّة.

(١) محاضرة البابا بنديكت السادس عشر وتوابعها دراسة شاملة بقلم الدكتور عز الدين إبراهيم صـ ١٥، ١٦، نشرتها جريدة الخليج بتاريخ ١٨ أكتوبر ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

فالوضع الَّـذي كان فيه القيصـر البيزنطي، وهو وضـع المحاصر المضيَّق عليه من الدولة المسـلمة الفتيَّة المنتصرة، دولـة بني عُثْمان: لا يسـاعد على التفكير في الحوار والمجادلات الدِّينيَّـة. وبلده مهدَّد بالسقوط أمام القُوَّة الزاحفة، وقد حدَّدوا الوقت بأنَّه سنة ١٣٩١م.

والمحاور الَّذي ذكره الإمبراطور: شـخصيَّته غيـر معروفة، بل هو مجهول الاسـم، ومجهول العين، ومجهول الحال، ولا يدرى: من الَّذي أرسله للحوار مع الإمبراطور؟ وهل تبعث دولة ما للجدال في أمر الدِّين مع إمبراطورٍ وصفوه بأنَّه عالمٌ واسع الاطِّلاع مجرَّدَ شخصٍ «مُتَعَلِّم»؟ أم يبعثون له علّامةً مُتَضَلِّعًا في علوم الدِّين والكلام والجدل؟

ومن أيِّ بلدٍ قدم؟ من إيـران ـ أي من بلاد الفرس ـ هل الفرس في ذلك الحين كانوا مَعْنيِّين بجدال البيزنطييـن، الَّذين يُقاتلون خصومهم الأتراك؟

وأين موقع هذا المسلم ـ أيًّا كان قدرُه ومسـتواه ـ في هذا الجدال: ما أسئلته للقيصر؟ وما ردوده عليه؟

بالطبع مصدرنا في هذا كُلِّه، هـو ما كتبه الإمبراطور مَانْوِيل الثاني، فليس لنا لهذه القصّة كلِّها مصدرٌ سواه.

ولو كانت قد حصلت بالفعل، ولـم يكن افتراضًا من الإمبراطور، وهو أسـلوبٌ أدبي متَّبع لدى بعض الكُتَّاب، كأنْ يقول سألني سائلٌ عن كذا، فقلتُ كذا. أو قال التلميذُ الفتى لشيخِه المُرَبِّي، ونحو ذلك... فإنَّ القيصر لم يكتبْ هذه المحاورة حـال وقوعها أو بعده بقليل، بل يبدو أنَّه كتبها بعد سـنوات، وكتبها كما يريد هو، وأجرى الحوار كما يريد أن يجري.

QaradawiBooks.com

وسنناقش في الصحائف القادمة بالتفصيل: ما جاء في كلمة البابا على لسان القيصر، ممَّا يتعلق بالإسلام ونبيِّه وعقيدته وشريعته وحضارته وأمَّته على افتراض وقوع هذه المحاورة.

غير مرخصة للطباعة

البابا وتفسير القرآن:

أقحم البابا نفسه فيما لا يُحْسِنُه من علوم القرآن وتفسيره، واجترأ على أنْ يقول فيه بغير علم، وهو ما لا يليق بمثله، وحوله الخبراء والمستشارون، وما أسهل أنْ يرجعوا إلى كتابٍ من كُتُب التفسير المُعْتَمَدَة عند المسلمين، فيعرفوا منها المعنى المقبول أو الراجح.

ولكن البابا لم يفعل ذلك، وتعرض للكلام في آية [البقرة: ٢٥٦]: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾.

قال البابا: إنَّ القيصر كان يعلم بيقينٍ أنَّ الآية (٢٥٦) من سورة البقرة تقضي بأنْ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ وهي آية من السور الأولى، الَّتي نزلت لمَّا كان مُحَمَّد ـ كما قال لنا العارفون ـ لا يزال عديم القوَّة، وواقعًا تحت التهديد.

لكن القيصر كان يعلم كذلك: أنَّ آيات أُخرى من القرآن نزلت بعد ذلك تتضمَّن تحديداتٍ وتدقيقاتٍ أخرى حول الحرب المُقَدَّسة (يعني الجهاد).

فالبابا يزعم حسَبما قال له العارفون أنَّ آية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ كانت من أوائل ما نزل من القرآن، عندما كان مُحَمَّد ضعيفًا عديم القوَّة، يعيش تحت سلطان مشركي قريش الَّذين يسودون مكَّة، ويتحكَّمون في مصيرها.

وهنا يبدو البابا ومن حوله من العارفين الَّذين يعتمد عليهم غايةً في الضحالة والجهل بالأوَّليات اللازمة لمعرفة القرآن وعلومه وتفسيره. فمن

QaradawiBooks.com

المعروف: أنَّ هناك قرآنًا مكيًّا «نزل في مكَّة قبل الهجرة»، وقرآنًا مدنيًّا (نزل في المدينة بعد الهجرة) وأنَّ سورة البقرة من السور المَدَنِيَّة بالإجماع، وموضوعاتها تدلُّ على ذلك. فكيف تستثنى منها آية واحدة، لتنزل في السور الأولى، أي في أوائل العهد المَكِّي؟! هذا أمرٌ غير مفهوم قط.

ولو رجع البابا والعارفون الَّذين فسَّروا له الآية، إلى أيِّ كتابٍ من كتب تفسير القرآن، لعلم أنَّ هذه الآية لم تنزل إلَّا بعد عدة سنوات من الهجرة، أي بعد غزوة بدر، وجلاء بني قينقاع من اليهود، ووقوع غزوة أحد، وجلاء بني النضير، وكان من أبناء الأنصار من دخل في اليهوديَّة بنذر أُمِّه إذا عاش ولدها أن تُهَوِّده! فلما وقع الجلاء من المدينة لبني النضير، قال آباؤهم: أبناؤنا، وكيف ندعهم يرحلون معهم؟ وأرادوا أن يكرهوهم على ترك اليهوديَّة، والبقاء مع أهليهم وعشيرتهم وقومهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾

وأمَّا ما زعمه البابا من الآيات الأخرى الَّتي نزلت بعد ذلك حول «الحرب المُقَدَّسة» أو الجهاد، والَّتي يرى الإمبراطور البيزنطي والبابا ـ تبعًا له ـ أنَّها تحمل في طيَّاتها «العنف» مع الآخر، وتدعو إلى نشر الدين بحدِّ السيف! فسنردُّ عليها في موضعها ردًّا يُخْرِس كُلَّ معاند، ويُسْكِت كلَّ مجادلٍ بالباطل.

هذا وقد اعترف البابا أخيرًا في تعليقاته على نصِّ المحاضرة: أنَّ ما نقله عن العارفين في آية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ لم يكن صحيحًا أو دقيقًا.

* * *

QaradawiBooks.com

١

هل أتى الإسلام بجديد غير ما في اليهوديَّة والمَسِيحيَّة؟

ذكر البابا في محاضرته أنَّ الإمبراطور البيزنطي سأل محاوره العالم «أو المتعلم» المسلم: «أخبرني: ما الجديد الَّذي جاء به مُحَمَّد غير الأشياء الشِّريرة وغير الإنسانيَّة، مثل أمره بنشر دينه الَّذي يدعو إليه ـ بحدِّ السيف؟».

ولم يخبرنا البابا في كلمته: ماذا أجاب به هذا العالم (أو المُتَعَلِّم) الفارسيُّ المسلم؟ فلا شكَّ أنَّه ردَّ على محاوره، وإلا كان حوارًا من جانب واحد!

وقد سكت البابا نفسه عن هذا التساؤل، والسكوت في هذه الحال تسليمٌ وإقرارٌ وموافقة على ما تضمنه السؤال القبيح.

يُؤَكِّد هذا: أنَّ البابا قد اقتبس هذا الكلام على لسان القيصر البيزنطي ـ وهو مسيحي أرثوذكسي، مخالِفٌ لدين البابا، بل هو في نظره كافر ـ ليستشهد به على الفكرة المخبوءة في رأسه، وهي: أنَّ الجهاد في الإسلام ـ أو الحرب المقدَّسة كما يقول ـ يحمل معنى العنف في التعامل مع الآخرين. وهو ما تخالف فيه النَّصرانيَّة الإسلام، فهي ترفض العنف بإطلاق، ولا ترى أن تقابل السَّيِّئة بمثلها، ولا توافق

QaradawiBooks.com

من يقول: «الشرُّ بالشرِّ يُحْسم، والبادئ أظلمُ!» بل يقول إنجيلها: «من ضربك على خدك الأيمن فأدِرْ له خدَّك الأيسر، ومن سخَّرك لتسير معه مِيلًا فسِرْ معه مِيلَيْن»[1]!

أمَّا الإسلام، فقد قال لأتباعه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وإذا لم يَرُدُّ البابا على سؤال القيصر، فنحن نتطوَّع بالردِّ عليه، ونقول له: يا سيادة القيصر أو الإمبراطور، أحسب أنَّه لا يخفى عليك ما جاء به الإسلام من جديدٍ في كلِّ المجالات الَّتي اشتملت عليها الرسالة الإسلاميَّة العامة الخالدة الشاملة.

١ ـ في مجال العقائد:

جاء بالجديد في مجال العقيدة في كلِّ أقسامها ونواحيها:

في مجال الألوهيَّة: جاء بالتوحيد الخالص، فلا يشارك الله أحد في رُبُوبِيَّته ولا في أُلُوهيَّته، كما جاء بالتنزيه المحْضِ، فلا يُشَبَّه الله بأحدٍ من خلقه، كما فعلت اليهوديَّة، ولا يشبه المخلوق بالخالق، كما فعلت النَّصرانيَّة. وحسْبُكَ سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وفي مجال النُّبُوَّات: جاء بمبدأ عصمة الأنبياء من الذنوب، ولا سيَّما الكبائر الَّتي تنسبها إليهم أسفار التوراة، فهذا يسكر، وهذا يزني، وهذا

(١) انظر: إنجيل متَّى (٣٨/٥ ـ ٤٣)، ولوقا (٢٩/٦، ٣٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يطمع في امرأة جاره، ويحتـــال عليه حتَّى يُقْتَل فـــي المعركة، ويحظى بزوجته من بعده!

وفي مجال الغيبيَّات والآخرة: جاء بمبدأ العدل الإلٰهي، الَّذي لا يخاف عنده أحدٌ ظلمًا ولا هضمًا، والَّذي لا يظلم أحدًا مثقال ذرة: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وبهذا أبطل الشفاعة الشركيَّة الَّتي اعتمد عليها الوثنيُّون في أنَّ أصنامهم أو آلهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله، ولا يملك الله أنْ يرد شفاعتها، وقد انتقلت فكرة الشـــفاعة هذه إلى أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، الَّذين زعموا أنَّهم تشفع لهم أحبارهم ورهبانهم. فأبطل الله هذه الشفاعة الشِّرْكِيَّة بصفةٍ مُطْلَقة، وأثبت شفاعة أخرى، ولكنَّه قيَّدها بقَيْدَيْن:

الأوَّل: أنَّه لا يشـــفع أحدٌ إلَّا بـــإذن الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقـــرة: ٢٥٥]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

والثاني: أن لا شـــفاعة لغير أهل التوحيد، فأمَّا المشركون فلا شفاعة لهم، قال تعالـــى في شـــأن الملائكـــة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولا يرتضي الله أهل الشـــرك أبدًا، وقال عن المشركين: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثـــر: ٤٨]، وقال عنهم: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

٢ ـ في مجال العبادات والشعائر:

وجاء بالجديـــد في مجال العبـــادات: في الصَّلاة والـــزكاة والصيام والحج.

QaradawiBooks.com

الصَّلاة:

أمَّا الصَّلاة، فهي في الإسلام فريضةٌ عظيمة، وهي عمود الإسلام، والركن الثاني من أركانه بعد الشهادتين. الإسلام وحده هو الدِّين الَّذي يجعل المسلم على موعد مع ربِّه خمس مرَّاتٍ في كلِّ يوم، لا يوجد دينٌ يربط الإنسان بربِّه هذا الربط، يجعله ينتشل نفسه من لُجَّة الحياة إذا غرق في أعمالها ومشاغلها، ليقف بين يدي مولاه.

عندما تزول الشمس عن كَبِد السماء، بعد الزوال يناديه المنادي: الله أكبر، الله أكبر، حيَّ على الصَّلاة، حيَّ على الفلاح، فينتزع نفسه من الدُّنْيا، ويأتي ليُؤَدِّي صلاة الظهر، وبعد أن يصير ظلُّ كلِّ شيءٍ مثله، يُؤَدِّي صلاةَ العَصْر، وبعد أن يغرب قرصُ الشمس يُؤَدِّي صلاة المغرب، وبعد أن يغيب الشفق الأحمر يُؤَدِّي صلاة العشاء، وبعد أن ينبلج الفجر يُؤَدِّي صلاة الفجر، خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد في اليوم والليلة.

كما جاء بنوافلَ تطوعيَّةٍ كثيرةٍ لا تُعْرَفُ في أديانٍ أخرى، فقيل: صلاة العيدين، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الكسوف والخسوف، وغيرها من الصلوات الَّتي تُؤَدَّى في جماعة.

هذا غير السُّنن الرواتب، وغيرها من النوافل الَّتي فتح الله بابها، لمن يحبُّ الاستزادة من الخير، «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الَّذي يسمع به، وبصره الَّذي يُبْصِرُ به، ويده الَّتي يبطش بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعِيذنَّه**»[1].

كما فتح الباب لصلوات فرديَّة، مثل: صلاة الضحى، وقيام الليل.

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ومن أعظم الصلوات الجماعيَّة الَّتي جاء بها: صلاة التراويح في رمضان من كلِّ عامٍّ، وهي صلاةٌ طويلةٌ يحرص المسلمون عليها، ويتقربُّون إلى الله بأدائها، وخصوصًا في الحرمَيْن الشَّرِيفَيْن.

كما جاء بصلاة الجمعة الأسبوعيَّة، الَّتي يجتمع فيها النَّاس في المساجد، ويسمعون الموعظة.

الصَّلاة في الإسلام ليست كالصَّلاة عند المَسِيحيِّين أو اليهود، الصَّلاة عند المَسِيحيِّين دعاءٌ وابتهال، أمَّا الصَّلاة في الإسلام فقيامٌ وقعود، ركوعٌ وسجود، وتلاوة وتسبيحٌ وتكبير وتهليل وتشهد، يعمل فيها اللسان ذاكرًا مسبِّحًا، ويعمل فيها الجسم متحرِّكًا قائمًا قاعدًا، ويعمل فيها القلب مخلصًا خاشعًا، يعمل فيها العقل مُتَدَبِّرًا مُتَأَمِّلًا.

هذه الصَّلاة الَّتي جمعت كلَّ أنواع التعظيم لله ﷻ، ولها شروطٌ ليست عند أي دينٍ من الأديان ألَّا تقوم للصلاة إلَّا مُتَطَهِّرًا: طاهر الثوب، طاهر البدن، طاهر المكان، طاهرًا من الحدث الأكبر إذا أصابتك جنابة، ومن الحدث الأصغر إذا انتقض وضوؤك، تقوم مُتَطَهِّرًا متوضِّئًا تقف بين يدي الله، آخذًا زينتك، ساترًا عورتك، مُتَجَرِّدًا بقلبك لله، مستقبلًا الكعبة، مراعيًا الوقت، حتَّى لا تكون من ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].

الزكـاة:

وأمَّا الزكاة: فقد تميَّزت عن الصدقات في الأديان الأخرى بجملة مزايا:

أوَّلًا: إنَّ الزكاة الإسلاميَّة لم تكن مُجَرَّد عملٍ طيِّب من أعمال البِرِّ، بل هي ركنٌ أساسي من أركان الإسلام، يوصم بالفسق من منعها،

QaradawiBooks.com

ويحكم بالكفر على من أنكر وجوبها، فليست إحسانًا اختياريًّا، وإنَّما هي فريضة تتمتع بأعلى درجات الإلزام الخلقي والشرعي.

ثانيًا: إنَّها في نظر الإسلام حقٌّ للفقراء في أموال الأغنياء، وهو حقٌّ قَرَّره مالكُ المال الحقيقيُّ وهو الله تعالى، فليس فيها معنًى من معاني التفضُّل والامتنان من الغنيِّ على الفقير.

ثالثًا: إنَّها ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ قدَّر الشَّرْع الإسلامي نُصُبه ومقاديره وحدوده وشروطه، ووقت أدائه وطريقة أدائه.

رابعًا: هذا الحقُّ لم يُوَكَّل لضمائر الأفراد وحدها، وإنَّما حُمِّلت الدولة المسلمة مسؤوليَّة جبايتها بالعدل وتوزيعها بالحقِّ.

فهي ضريبة تُؤخَذُ وليست تَبَرُّعًا يمنح.

خامسًا: إنَّ من حقِّ الدولة أن تؤدِّب ـ بما تراه من العقوبات المناسبة ـ كلَّ من يمتنع من أداء هذه الفريضة.

سادسًا: إنَّ أيَّ فئةٍ ذات شوكة تتمرَّد على أداء هذه الفريضة، فإنَّ من حقِّ إمام المسلمين ـ بل من واجبه ـ أنْ يُقاتلهم ويُعْلِن عليهم الحربَ حتَّى يؤدُّوا حقَّ الله وحقَّ الفقراء في أموالهم.

سابعًا: إنَّ الفرد المسلم مطالب بأداء هذه الفريضة العظيمة وإقامة هذا الركن الأساسي في الإسلام، وإن فرَّطت الدولة في المطالبة بها، أو تقاعس المجتمع عن رعايتها. وعليه ـ ديانة ـ أنْ يعرف من أحكام الزكاة ما يمكنه من أدائها على الوجه المشروع المطلوب.

ثامنًا: إنَّ حصيلة الزكاة لم تُترك لأهواءِ الحُكَّام، ولا لتَسَلُّط رجال الكهنوت ـ كما كان الحال في اليهوديَّة ـ ولا لمطامع الطامعين من غير

QaradawiBooks.com

المُسْتَحَقِّين، تنفقها كيف تشـاء، بل حدَّد الإسلام مصارفها ومستحقيها، فقد عرف البشر من تجاربهم أنَّ المُهِمَّ ليس هو جباية المال، إنَّما المُهِمُّ هو أين يُصْرَف؟

تاسـعًا: إنَّ هذه الزكاة لم تكن مُجَرَّد معونة وقتيَّـة، بل كان هدفها القضاء على الفقر، وإغناء الفقراء إغناء دائمًا، لأنَّها فريضةٌ دوريَّة منتظمة دائمة الموارد.

عاشرًا: إنَّ الزكاة ـ بالنظر إلى مصارفها الَّتي حدَّدها القرآن وفصَّلتها السُّـنَّة ـ قد عملت لتحقيق عدَّة أهـداف رُوحيَّة وأخلاقيَّـة واجتماعيَّة وسياسـيَّة، فهي أوسـع مدًى، وأبعـد أهدافًا مـن الزكاة فـي الأديان الأخرى[1].

الصـيام:

وأمَّا الصيام، فقد جاء الإسلام بالجديد الَّذي يجعل صيام المسلمين مُتَمَيِّزًا عن الصيام المعروف عند النَّصارى، فالصيام الإسـلامي حرمانٌ كاملٌ من كلِّ ما يُشْـبِع شـهوتي البطن والفرج، ولو من حـلالٍ، طلبًا لمرضاة الله تعالى. كما قال الله تعالى في الحديث القدسـي عن الصيام: «**يدع الطعام من أجلي، ويدع الشراب من أجلي، ويدع زوجتَه من أجلي، ويدع لذَّته من أجلي، فالصيام لي وأنا أجزي به**»[2].

(١) انظر كتابنا: فقه الزكاة (١٠٢/١ ـ ١٠٩)، الباب الأول، تحت عنوان: فروق أساسية بين الزكاة في الإسلام والزكاة في الأديان الأخرى، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) رواه ابن خزيمة في الصيام (١٨٩٧)، وقال الأعظمي: إسناده صحيح. عن أبي هريرة. وأصل الحديث في الصحيحين: «الصوم لي وأنا أجزي به، يَدَع شـهوته وطعامه من أجلي». متَّفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصوم.

QaradawiBooks.com

الصيام في النَّصرانيَّة عن كلِّ ذي رُوح، ولكنَّه يأكل من الأغذية النباتيَّة، ما يُشْبع بَطْنَه، ويُلَبِّي شهوته.

ولا يعرف صيام النَّصارى الصيام عن الشهوة الجنسيَّة، فلا يحلُّ للمسلم الصائم أنْ يُجامِع امرأتَه إلَّا في الليل.

وهذا الصيام مفروض في كلِّ سنة لمدَّة شهر كامل، وهو شهر مُعَيَّن معروف، هو شهر رمضان، الَّذي يدور في الفصول الأربعة كُلِّها، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفرضيَّة الصيام ثابتة بالقرآن المؤكد بالسُّنَّة والإجماع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولا يوجد نصٌّ في التوراة ولا في الأناجيل يُفيد فرضيَّة الصيام على اليهود والنَّصارى.

ولهذا الصيام أحكام أجملها القرآن، وفصَّلتها السُّنَّة، وقنَّنها الفقه، تقوم على اليُسْر ورفع الحرج، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥][(١)].

وينتهي صيام رمضان بصدقة مفروضة على كلِّ مسلم يَقْدِر على أدائها، وهي صدقة الفطر، الَّتي فرضها رسول الإسلام، إسعافًا للفقراء والمساكين في يوم العيد[(٢)]، يطوف الموسرون عليهم ليعطوها لهم، ولا يكلِّفوهم بأنْ يطوفوا هم عليهم، بل يُغنونهم

(١) راجع كتابنا: تيسير فقه الصيام، نشر مكتبة وهبة، ومؤسسة الرسالة.

(٢) إشارة إلى حديث: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر، طهرة للصائم من اللغو والرفث. رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، والحاكم (٥٦٨/١)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الزكاة، والدارقطني في زكاة الفطر (٦١/٣)، وقال: ليس فيهم مجروح. وحسَّنه إسناده النووي في المجموع (١٢٦/٦)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

عن السؤال في هذا اليوم[١]، الَّذي يجب أنْ يشترك فيه الجميع في مَسَرَّة العيد.

وبهذا ارتبط عيد الفطر بفريضة الصيام، ويبدأ بصلاة مخصوصة هي صلاة العيد، يجتمع فيها أهل البلد أو القرية أو الحيِّ في صعيدٍ واحد، في صورة مهْرَجان إسلاميٍّ، يُهَلِّلون ويُكَبِّرون، يبدؤون يومهم بطاعة الله سبحانه وعبادتِه.

الحج:

وأمَّا عبادة الحجِّ، وهي الركن الخامس من أركان الإسلام، فتتميَّز هذه العبادة عن مثيلاتها في الأديان الأخرى.

فهي أوَّلًا: فريضة وركنٌ يُؤَدِّيه كلُّ من استطاع إليه سبيلًا، في العمر مرَّة، وبعدها يكون تطوعًا منه.

وهي ثانيًا: عبادة بدنيَّة وماليَّة، فإذا كانت الصَّلاة عبادة بدنيَّة، وكذلك الصيام، والزكاة عبادة ماليَّة، فإنَّ الحجَّ جمع بين الأمرين، فهو عبادة بدنيَّة وماليَّة، يُتْعِب المسلم فيه بدنه، ويعاني المشقَّات في سفره، وفي أداء مناسكه، وفي إقامته في مِنًى وعرفات ومُزْدَلِفة وغيرها، وفي الطواف والسعي، ومع ذلك عليه أن يبذل ماله، في نفقات السفر إلى مكَّة، والإقامة فيها حتَّى يعود.

وهي ثالثًا: تعتمد على الحركة الجماعيَّة للحجيج، لأنَّ مناسك الحجِّ موقوتة بأيام محدَّدة، فالتحرُّك إلى مِنًى في يوم التروية (الثامن من

(١) إشارة إلى حديث: «أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم». رواه الدارقطني في زكاة الفطر (٢١٣٣)، والبيهقي في الزكاة (١٧٥/٤)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

ذي الحجَّة)، والوقوف بعرفة يوم التاسع، والنفير من عرفة إلى مزدلفة بعد غروب يوم التاسع، أي ليلة العاشر، ورمي جمرة العقبة وطواف الإفاضة يوم العاشر، ورمي الجمرات يومي الحادي عشر والثاني عشر لمن تعجل.

وكلُّ هذه الأعمال تؤدَّى في تحرُّك جماعي، يعتبر عند المسلمين ضربًا من العبادة لله، وسببًا في التقرب إليه.

ويعتبر الحجُّ تدريبًا للمسلم على السلم، فلا يقتل صيدًا، ولا يقطع شجرًا، وتدريبًا على المساواة، فالناس جميعًا يلبسون ثيابًا بِيْضًا بسيطة متواضعة، لا تفرق فيها بين غني وفقير ولا بين سوقة وأمير.

ويعتبر الحج إذا كانت نفقته من حلال، وأدِّي بإتقان وإخلاص: ميلادًا جديدًا للمسلم، يرجع معه إلى بلده إنسانًا آخر، كما صحَّ في الحديث: «**من حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسُقْ، رجع من ذنوبه كيوم ولدَتْه أمُّه**»[1].

وفي يوم العاشر من ذي الحجَّة: يقع عيد الأضحى، وهو العيد الثاني للمسلمين، وهو مرتبطٌ بعبادة الحجِّ، ولذا يسمَّى يوم العاشر: يوم الحج الأكبر.

هذا الحجُّ بشعائره وأركانه وشروطه وآدابه: من الجديد الَّذي جاء به مُحَمَّد ﷺ، وليس من الأشياء الشِّريرة وغير الإنسانيَّة الَّتي زعمها الإمبراطور البيزنطي!

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (١٨٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

٣ ـ الجديد في الأخلاق:

وجاء بالجديد في مجال الأخلاق، لقد جاء الإسلام بمجموعة من الفضائل الأخلاقيَّة، أسسها على فلسفة ربانية عميقة، تتميز بجملة من الخصائص.

أخلاق معللة مفهومة:

لم تكن الأخلاق في الإسلام كما جاءت في اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، تحكميَّة غير معللة ولا مفهومة، «افعل كذا»، مجردًا من أي تفسير أو تعليل، لكن القرآن إذا أمر أمرًا عَلَّله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور: ٣٠]، أطهر لهم، وأنمى لهم، وأرقى لهم.

يُعلِّل القرآن أوامره الأخلاقيَّة، فهي أخلاق مفهومة، وليست أخلاقًا تحكمية.

أخلاق وسطيَّة متوازنة:

وهي أخلاق وسطيَّة متوازنة، تجمع بين الدُّنْيا والآخرة، بين العقل والقلب، بين الروحيَّة والماديَّة، بين الحق وبين الواجب، ما للإنسان وما على الإنسان، فإذا كان الإنسان المثالي في المَسِيحيَّة: هو الراهب الَّذي يتجرد عن الحياة، ويعتزل الدُّنْيا، ويعتزل النساء، ولا يتزوج، ولا يعمل للحياة. فإنَّ الإنسان المثالي في الإسلام هو الَّذي يجمع بين

QaradawiBooks.com

الحسنتين: الدُّنْيا والآخرة، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، في يوم الجمعة يسعى المسلم إلى ذكر الله ويذر البيع، يعني أنَّه كان في بيع قبل الصَّلاة، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، يمكن أنْ يعمل قبل الصَّلاة، ويعمل بعد الصَّلاة.

العمل في الإسلام عبادة والعمل في الإسلام جهاد، ولذلك الأخلاقيَّة الإسلاميَّة هي الأخلاقيَّة الوسطيَّة، ليس هناك إنسان يظلُّ يعبد الله دائمًا، يصوم النهار ويقوم الليل. وحينما شكا بعض الصحابة أنَّه يشعر بأنَّه نافق في حياته، لأنَّه يكون على حال عند رسول الله، وعلى حال آخر إذا ذهب إلى بيته، وداعب زوجته ولاعب أولاده، فقال له، وكان اسمه حنظلة: «**يا حنظلة، لو دمتم على الحال الَّتي تكونون فيها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**»[(١)].

لا يطلب الإسلام من الإنسان المسلم أنْ يظلَّ عابدا باكيًا خائفًا طول حياته، ولكن ساعة وساعة، هذا هو الإسلام.

جاء الإسلام بالتوازن الأخلاقي، فإذا كانت اليهوديَّة قالت: السن بالسن، والعين بالعين، والأنف بالأنف. والمسيح قال: مَن ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدَّك الأيسر[(٢)]. فإنَّ الإسلام لم يأمر بما أمر به المسيح أمرًا عامًّا، لأنَّ هذا قد يصلح لمجموعة صغيرة منتقاة، لكن لا يصلح أمرًا عالميًّا وتوجيهًا عالميًّا لكل البشر، ولكنَّه رغب فيه، باعتباره فضلًا وإحسانًا، الإسلام جاء بالعدل، وجاء بالفضل: مرتبة

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، وأحمد (١٧٦٠٩)، عن حنظلة الكاتب.

(٢) سبق تخريجه صـ٣٢.

QaradawiBooks.com

العدل: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومرتبة الفضل: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

عليك أنْ تقوم بالعدل وهذا الواجب، ولك أنْ تقوم بالفضل والإحسان وتعفو: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

أخلاق واقعيَّة:

الأخلاق في الإسلام أخلاق وسطيَّة، وأخلاق واقعيَّة، تراعي حالة الإنسان لا تريد من الإنسان أن يكون ملاكًا مُطَهَّرًا، يمكن للإنسان أنْ يقع في الخطيئة، ولا عجب أنْ يقع الإنسان في الخطيئة، أبوه آدم أخطأ، ولكن الله فتح له باب التوبة: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] إنَّ الله تعالى ذكر الأمَّة المصطفاة فقال: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢] أي مِن الأمَّة مَنْ يظلم نفسه، ويقصِّر في بعض الواجبات، ويقع في بعض المحرمات، ولكن هذا لا يغلق باب التوبة عنه، فباب الله مفتوح ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

٤ ـ الجديد في التشريع:

أمَّا الجديد، في التشريع فحَدِّثْ ولا حرج.

فمن المعروف أنَّ المَسِيحيَّة ليس فيها تشريع، إلَّا ما جاءت به في شأن الطلاق، وتحريمه؛ إلَّا لعِلَّة الزَّنى، وقد كفر المَسِيحيُّون بهذا

QaradawiBooks.com

التشريع، وأجازوا الطلاق لأتفه الأسباب، ولم يلتزموا بتعاليم دِينهم في ذلك.

وأمَّا ما جاءت به اليهوديَّة من التشريعات فيغلب عليها «القوميَّة الإسرائيليَّة»، فهو ليس تشريعًا إنسانيًّا عالميًّا، بل هو تشريعٌ لشعبٍ مُعَيَّن.

وهذا بخلاف التشريع الإسلامي، الَّذي جاء تشريعًا عالميًّا إنسانيًّا، فقد أعلن القرآن الكريم منذ العهد المَكِّي أنَّه جاء: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كما أنَّه: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وقال الله للرسول مُحَمَّد: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولهذا دخل الإسلام بلاد الحضارات: فارس والروم والعراق والشام ومصر وشمال إفريقيا والهند، وحَكَم هذه البلاد، فما ضاق تشريعه يومًا بواقعة، بل عالج كلَّ المشكلات برُوح سَمْحة، وعقلٍ مَرِن، في ضوء أصول دينه، ومقاصد شريعته، فكان من وراء ذلك: الخير والعدل والأمن والاستقرار.

لقد كانت الأصول النظريَّة الَّتي جاء بها التشريع وافية بكلِّ ما يحتاج إليه البشر، في مجال الفرد وحاجاته، ومجال الأسرة ومطالبها، ومجال المجتمع ومقوماته، ومجال الأمَّة ورسالتها، ومجال العلاقات الإنسانيَّة في السلم والحرب.

وكانت هذه الأصول تتميَّز بخصائص لا تتوافر لغيرها: غايتها الربَّانيَّة، ونزعتها الإنسانيَّة، ووجهتها الأخلاقيَّة، وعلاجاتها الواقعيَّة، ورؤيتها العالميَّة، ومراعاتها للمصالح البشريَّة المتنوِّعة، ومرونتها في

QaradawiBooks.com

مواجهة المشكلات، بما يلائم الزمان والمكان والعرف والحال، ويراعي لكلِّ حالة ظروفها، ويعطيها حقهـا وحكمها، مع الحرص على الموازنة بين النصوص الجزئيَّة في الواقعة، والمقاصد الكُلِّيَّة للشـريعة، ورعاية القواعد الفقهيَّة الَّتي تحكم منطق الفقيه حين ينظر في النصوص، وحين تَرِدُ عليه الوقائع.

مثل قواعد: الأمور بمقاصدها. العـادة مُحَكَّمة. لا ضررَ ولا ضرار. المَشقَّة تجلب التيسير. الضرورات تبيح المحذورات. الحاجة تُنَزَّل منزلةَ الضرورة. الضرر يُزال. الضرر لا يزال بضرر مثلـه أو أكبر منه. يتحمَّل الضرر الخاصَّ لدفـع الضرر العامَّ. يُتَحَمَّل الضـرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى. يُرْتَكَب أخفُّ الضَّرَرين. يُفَوَّت أدنى المَصْلَحَتَيْن.

ولقد خدمت هذا التشـريعَ عقولٌ كبيرة على مرِّ العصور، وتكوَّنت مدارس ومذاهب شتَّى في فقه هذا التشريع، تملك ثروة هائلة من «الفقه» المؤسَّس على «أصول» معروفة، والمسـتند إلى أدلَّة من النقل والعقل، نوَّهت بقيمته المؤتمرات العالميَّة للقانـون، الَّتي انعقدت في أوربا في القرن الماضي، في لاهاي، وفي باريس.

وقدمت مئات الرسـائل للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه في الجامعات الإسـلاميَّة المتعـددة في أنحاء العالـم، وفي الجامعات المَدَنِيَّة أيضًا: في كُلِّيَّات الحقوق «القانون» والتجارة والإدارة والاقتصاد وغيرها، كلُّها تُجْلِي جانبًا أو أكثر من جوانب هذا التشريع العظيم.

ولقد سبق هذا التشـريع الَّذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنًا: التشـريعات المعاصرة في تبنِّـي نظريَّات المسـاواة والحُرِّيَّـة والعدل ومحاربة الظلم والفساد والطغيان. وكل النظريَّات الَّتي يفخر بها القانون

QaradawiBooks.com

الحديث كان للمسلمين السبق فيها، وإن اختلفت المصطلحات أو الصياغات، مثل نظريَّة «التعسُّف في استعمال الحقِّ»، ونظريَّة «تحمُّل التَّبِعة»، ونظريَّة «الظروف المُخَفِّفة»، وغيرها.

هل جاء مُحَمَّد بأشياء شريرة ولا إنسانيَّة؟

كان في كلمات القيصر البيزنطي الأرثوذكسي، الَّذي جعل البابا كلامه عمدة له فيما تحدَّث به عن الإسلام في محاضرته: أنَّ مُحَمَّدًا لم يجئْ بشيءٍ جديد، إلَّا الأشياء الشريرة واللاإنسانيَّة، مثل أمره بنشر دِينه الَّذي جاء به بحدِّ السَّيْف!

فليتَ شِعْري: ما الأشياء الشِّريرة الَّتي جاء بها مُحَمَّد؟ وهو أوَّل من دعا إلى الخير، وفعل الخير، ونيَّة الخير، والتعاون على الخير، والدعوة إلى الخير، والإنفاق في سبيل الخير، والجهاد في سبيل الخير.

وهو أوَّل من قاوم الشر والفساد والجريمة والظلم والرذيلة والاحتكار والربا وكَنْز المال والسَّرَف والترف، والاستبداد والطغيان، وقهْر الضعفاء، وأكْل حقِّ الفقراء، وقرَّر أجر العمال، وحقوق المُسْتَضْعَفِين، اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وهو أوَّل من دعا إلى برِّ الوالدَيْن ـ ولو كانا مشركين ـ وصلة الأرحام وإيتاء ذي القربى، والإحسان إلى الجيران، وإكرام اليتيم، والأرملة، والحضِّ على طعام المسكين.

كما دعا إلى تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، ورعاية فطرته الَّتي فطر النَّاس عليها، وعدم مصادرة غرائزه، بل التسامي بها وتهذيبها بحيث تقف عند المثل العليا، الَّتي تسمَّى: حدودًا، وتهتدي بهدي الله،

QaradawiBooks.com

والمحافظة على كرامة الإنسان، وحرية الإنسان، الَّذي جعله الله في الأرض خليفة، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فلا يجوز أنْ يسوقه حاكمٌ بالعصا كما تُساق الحمير، ولا يجوز أنْ يُهضم حقُّه، أو يُهمل أمرُه، أو تداس كرامتُه، أو تدنَّس حرماته. ويجب أنْ يُحمى دِينُه ودمُه وعِرْضُه ومالُه، وأنْ يُرعَى حقُّ الضعيف، حتَّى إنَّه أجاز القتال من أجل إنقاذ المستضعفين.

وإنِّي لأسائل الإمبراطور ومن وافق على كلامه: أين أمر مُحَمَّد بنشر دِينِه بالسيف؟ هذا هو القرآن أمامنا كاملًا غير منقوص، لم تَضِعْ منه كلمة واحدة، يضمُّ أكثر من ستَّة آلاف آية، فأين من هذه الآيات ما يأمر بنشر الدِّين بالسَّيْف؟

وجدنا الآيات الَّتي ترفض أنْ يدخل النَّاس تحت بريق السيف، أو أي لون من ألوان الإكراه.

ليس في القرآن إلَّا الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالَّتي هي أحسن.

وإذا لم نجد هذا في القرآن، فهل نجد هذا في السُّنَّة؟

لا والله، لن نجد هذا في السُّنَّة كما لم نجده في القرآن.

يقول القرآن الكريم في سورة النحل المَكِّيَّة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول في سورة آل عمران المَدَنِيَّة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

QaradawiBooks.com

فانظرْ إلى ختام الآية ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: أعرضوا عن الإيمان، ولم يقبلوه. ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لم يقل: فاضربوا رقابهم بحدِّ السيف، أو شنُّوا عليهم الغارة.

وليست هذه هي الآية الوحيدة الَّتي تقول ذلك في شأن من تولَّى عن الإسلام وأعرضوا عنه، بل هناك عشرات الآيات تقر مثل ذلك المعنى.

ففي نفس سورة آل عمران: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي سورة النور: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وفي سورة التوبة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، وفيها الآيات الَّتي يزعمون أنَّها «آيات السَّيْف»[(١)]! نقرأ قوله تعالى في آخر السورة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

رُبَّما قال بعضُهم: هناك حديث يقول: «**بُعثت بالسَّيْف بين يدي السَّاعة**»[(٢)]. وأقول: هذا الحديث ليس فيه أمرٌ بنشر الإسلام بالسَّيْف،

---

(١) ناقشنا ما قيل حول هذه الآيات في كتابنا: فقه الجهاد، وبيَّنَّا أنَّها كلها آيات في جهاد الذين يقاتلون المسلمين، ويفتنونهم في دينهم، وهي تقابل القوة بالقوة، والسيف بالسيف، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. انظر كتابنا: فقه الجهاد (٢٨٥/١ ـ ٣٣٣)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

(٢) رواه أحمد (٥١١٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه. ابن ثوبان =

QaradawiBooks.com

وإنَّما يقول: «**بُعِثْتُ بالسَّيْف**»، وقد بيَّنَّا في كتابنا «فقه الجهاد» أنَّ هذا الحديث مردودٌ من حيث سنده، وقد ضعفه مُخَرِّجو الحديث في «المسند»، ومن حيث دلالته، وهو مخالف لنصِّ القرآن الَّذي يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فهذا ما أرسل به محمد: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهذا ما تكرَّر في القرآن[١].

فقل لي بربِّك: أين أمر مُحَمَّد بنشر دِينِه بالسَّيْف؟ إذا لم تجد ذلك في آية أو بعض آية من كتابه، ولا حديث أو بعض حديث من سنته؟

نعم هناك آيات ـ وكذلك أحاديث ـ تحضُّ على القتال في سبيل الله، ولكن هذه ليس فيها أية دلالة على أنَّ المقصود بها نشر الدِّين بالسَّيْف، بل دفع الفتنة في الدِّين، وتوفير الحُرِّيَّة للمؤمنين، وقتال من يقاتل المؤمنين، وتأديب الناكثين والظالمين، وإنقاذ المُعَذَّبين والمُستضعَفين، فهذا ما جاءت به آيات القرآن الحكيم، وأحاديث الرسول العظيم، وليس فيها نصٌّ واحدٌ يأمر بنشر دين الله بالحديد والنار، والسيف البتَّار.

الله والقوَّة:

وكلام البابا في محاضرته يفهم: أن طبيعة «جوهر» الله ـ حسب تعبيره ـ تأبى الشدَّة والعنف مع خَلْقه بصفة مُطْلَقة، وأنَّه لا يتعامل مع

= اختلفوا فيه وخلاصة القول أنَّه: حسن الحديث إذا لم يتفرد بما ينكر عليه، فقد أشار أحمد إلى أن له أحاديث منكرة. قال المحققون: وهذا منها، عن ابن عمر. وانظر: تعليقنا على الحديث في فقه الجهاد (٣٣٥/١) وما بعدها.

(١) وتكررت الآية بلفظها في سورة الصف [الآية: ٩]. وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

QaradawiBooks.com

الخَلْق إلَّا بالمَحَبَّة والرحمة، ولا يحب أنْ يرى الدم، وهذا ليس بمُسَلَّم على إطلاقه.

فكثيرًا ما أنــزل الله عقوبته ببعض الأقوام الَّذين كفــروا به، وكذَّبوا رسله، وهذا واضح لمن قرأ التوراة والأسفار الملحقة بها.

فالله تعالى هو الَّذي أرسل الطوفان ليُغْرِق قومَ نوح، ويُطَهِّر الأرض من شرِّهم.

والله ســبحانه هو الَّذي أهلك عادًا بريحٍ صرصرٍ عاتية، حين كذبوا نبيَّه هودًا، وجحدوا برسالته، واتَّبعوا أمر كلِّ جبَّار عنيد.

والله ﷻ هو الَّذي أهلك ثمود بالصيحــة الَّتي أخذتهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

والله ـ جلَّ شأنُه ـ هو الَّذي أهلك فرعون وجنوده، وأغرقهم في اليمِّ أجمعين، وأنجى موسى ومن معه من المؤمنين.

إلى غير ذلك من العقوبات الســماويَّة الَّتي نزلت بالأمم من قبلنا، حين جحدوا بآيات ربِّهم وعصوا رسله.

والإســلام يرى أنَّ الأصل في الدماء هو التحريم، ولا يُبيح سبحانه من إســالة الدماء إلَّا بقدر الضرورة، الَّتي يســتلزمها الحفاظ على حياة المجموع. ولهذا شــرع القصاص مــن المعتدي من الأفراد، كما شــرع الجهاد لردع المُعتدي من الجماعات.

فقد شرع الله في التوراة: القِصاص من المعتدي بمثل عدوانه: النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والسنَّ بالسنِّ.

QaradawiBooks.com

كما شرع القتال ضدَّ بعض الشعوب وأمر موسى إذا استولى عليها: أنْ يضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف.

أمَّا الشعوب الأخرى القريبة، فعليه ألَّا يستبقي فيها نسمة حيَّة.

وسنذكر ذلك فيما بعد بالتفصيل. وسننقل عن التوراة وملحقاتها من إراقة الدماء وذبح الأبرياء ما يَشِيب من هوله الولدان، وهو للأسف منسوبٌ إلى الله تعالى، وإلى أنبيائه ورسله، الَّذين أرسلهم الله ليهدوا خلقه.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٢

الإيمان والعقل بين النَّصرانيَّة والإسلام

كانت علاقة الإيمان بالعقل، وعلاقة العقل بالعنف: أهم ما شغل البابا في محاضرته في الجامعة الألمانيَّة، الَّتي كان يدرس فيها من قبل.

ويعلق البابا بنديكت على ما نقله عن الإمبراطور البيزنطي الأرثوذكسي في محاوراته للمسلم الفارسي، فيقول:

«الجملة الحاسمة في تلك المحاورة ضد الإكراه على الإيمان هي: «ألَّا يتصرف الإنسان وفقًا للعقل هو أمر مخالف لطبيعة الربِّ». ويلاحظ المُحَرِّر ثيودور خوري أنَّه بالنسبة للإمبراطور البيزنطي المثقف بالفلسفة اليونانيَّة هذه الجملة لا تحتاج إلى إثبات، لأنَّها دليل بنفسها. لكن بالنسبة للتعاليم الإسلاميَّة: الله لا شأن له إطلاقًا بالعقل «فوق العقل، يتجاوزه، لا يقارن به». إرادته لا يَحُدُّها أيٌّ من معاييرنا بما في ذلك المعقوليَّة. وينقل خوري هنا من عالم الإسلاميَّات الفرنسي أرنالدز: ما ينقله الأخير عن ابن حزم: من أنَّ الله ليس مُلْزَمًا حتَّى بكلماته، وليس هناك ما يلزمه أن يوحي بالحقيقة، لو كانت تلك إرادة الله أن نعبد الأصنام، لفعلنا»! انتهى كلام ابن حزمٍ بحسَبِ النقل الفرنسي عنه.

QaradawiBooks.com

وقفات تأمُّليَّة مع ما نقله البابا:

ولنا عدَّة وقفات مــع هذه الفقرة، الَّتي اعتمد فيهــا البابا على عالم اللاهوت الألماني اللبناني الأصل ثيودور خوري.

الوقفة الأولى مع البابا:

الوقفة الأولى مع جملة: «ألا يتصرف الإنســان وفقًا للعقل، هو أمر مخالف لطبيعة (جوهر) الربِّ» ما مدلول هذه الجملة؟ ما معنى «مخالف لطبيعة الربِّ»؟ لو قال: مخالف لإرادة الرب، أي لما يحبه الرب ويرضاه من خلقه، أو مخالف لأمر الربِّ الَّذي بلغه الأنبياء عنه إلى عباده... لو قال شيئًا من ذلك لكان مفهومًا. ولكنَّه قال: مخالف لطبيعته أو جوهره، وكيف يستطيع المخلوق أنْ يخالف طبيعة الخالق؟

والعجيب أنَّ خوري الناقل عن الإمبراطور: ذكر أنَّ هذه الجملة لدى الإمبراطور الَّذي امتزجت تعاليمه النَّصرانيَّة بالفلسفة اليونانيَّة: لا تحتاج إلى إثبات، لأنَّها دليل بنفسها!

وقد عرف المسلمون الفلســفة اليونانيَّة، وتعمقوا فيها، وبلغوا فيها مبلغًا عظيمًا، وسيطرت على عقول فئة منهم، هم فئة «الفلاسفة» الَّذين يطلق عليهم مؤرخو الفلســفة: اسم «المدرسة المشــائية الإسلاميَّة»[1]، الَّتي تشمل الكندي والفارابي وابن سينا، ومن سار في دربهم. وكانت مهمتهم الأولى تتلخــص في التوفيق بيــن الدين والفلســفة، أو بين الشريعة والحكمة.

(١) لأنَّ معلِّمهم الأول: أرسطو، وهو مؤسس المدرسة المشائية اليونانية، وسميت كذلك، لأنَّه كان يدرس طلابه وهو يمشي في الحديقة!

QaradawiBooks.com

وقد اصطدم المتكلمون والفقهاء بالفلاسفة، ونقدهم حجة الإسلام الغزالي في كتابه الشـــهير «تهافت الفلاسفة» وخطأهم في سبع عشرة مســـألة، وكفرهم في ثلاثة. كما نقدهم بعد ذلك ابـــن تيمية وغيره. ودافع عنهم العلَّامة ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت» الَّذي ردَّ به على الغزالي.

ومن المعروف أنَّ الفلسفة اليونانيَّة، تشتمل على ألوان كثيرة، تتنوع وربما تتناقض، من الفكر، فهناك الشاكون والمشككون من السوفسطائية ومن تبعهم، وهناك الجاحـــدون الماديون الَّذين لا يؤمنـــون بالألوهيَّة، وهناك الوثنيون الَّذين يؤمنون بآلهة اليونان المختلفة، وهناك المُؤَلِّهون، الَّذين يثبتون الإلٰه، مثل الفلاسفة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ولكن تأليه هؤلاء ليـــس تأليها خالصًا كالذي جاءت به الرســـالات السماويَّة، حتَّى إنَّ أرســـطو، يعلم الدارسون أنَّ إلهه لا يُحَرِّك في الكون ساكنًا، ولا يعلم عنه شيئًا، فليس هو علَّة فاعلة في الكون، بل علَّة غائبة، يتحرك الكون شـــوقًا إليه. ولـــذا قال مُـــؤَرِّخ الفلســـفة الأمريكي «ول ديورانت» في كتابه «مباهج الفلسفة»: يا لِإِلَهِ أرسطو من إلهٍ مسكين! إنَّه مثل ملك الإنجليز، يملك ولا يحكـــم، لأنَّه لا يُدَبِّر في هذا العالم أمرًا. وإله أرسطو لا يعلم شيئًا إلَّا ذاته، وأشـــدُّ منه في ذلك «أفلوطين» الَّذي قال: إنَّ الإلٰه لا يعلم شيئًا حتَّى ذاته[1]!

فيا ترى ماذا عند الإمبراطور من العناصر الإيجابيَّة الَّتي تثبت فكرة الألوهيَّة ممَّا اكتسبه من الفلسفة الإغريقية! وقد ذكر البابا في محاضرته

(١) مباهج الفلسفة لول ديورانت صـ ١٦١، ١٦٢، ترجمة أحمد فؤاد الأهوانين، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.

QaradawiBooks.com

بعد ذلك مواقف رجال النَّصرانيَّة من الفلسفة اليونانيَّة، واختلافهم حولها إلى ثلاث فئات.

الوقفة الثانية مع البابا:

والوقفة الثانيــة عند قول البابــا: نقلًا عن خوري: لكن بالنسـبة للتعاليم الإسـلاميَّة: الله لا شـأن له إطلاقًـا بالعقل، «فـوق العقل، يتجاوزه، لا يقارن به» مشـيئة الله لا يحدها أي مـن معاييرنا بما في ذلك المعقوليَّة!

هل هذا الـكلام صحيح؟ الجـواب: لا، بل لا صحَّـة لهذا الكلام بالمرَّة. فعلم الكلام الإسلامي (الذي يختصُّ بالبحث في العقيدة) سواء عند المعتزلة أم الأشـاعرة أم الماتُريديَّة علمٌ قائـم على العقل، والعقل وحـده. ولا يدخلون فيـه النقـل إلَّا استئناسًـا، وخصوصًـا في باب السمعيَّات. أمَّا الإلٰهيَّات والنبوَّات، فإنَّ الأسـاس فيها المنطق العقلي، والدليل المعتمد فيها هو الدليل العقلي.

ومن قـرأ كُتَبَ علم الـكلام الشَّـهِيرة، مثل «المواقـف» للإيجي، وشـرحها للشـريف الجُرْجاني، و«المقاصد» وشـرحها لسـعد الدِّين التَّفْتَازاني، و«الطوالع» للبَيْضَاوي: عرف حقيقة ما نقول.

فدعوى أنَّ «الله» في التعاليم الإسـلاميَّة لا شـأن له بالعقل دعوى مرفوضة، بل ما يرفضه العقل من صفات الله لا يثبت لله سبحانه، حتَّى لو جاءت به نصوصٌ من القرآن والسُّنَّة، لا بدَّ أن تُؤَوَّل تأويلًا يُخرجها عن ظاهرها، حتَّى تتَّفق مع العقل، وهذا أمـرٌ مُتَفَّق عليه بين المعتزلة وأهل السُّنَّة من الأشاعرة والمَاتُرِيديَّة ومن وافقهما.

QaradawiBooks.com

وهذا سرُّ المعركة الدائرة بين السَّلف والخلف فيما يُسَمَّى بقضيَّة «آيات الصفات» و«أحاديث الصفات» ممَّا يُثْبِت لله تعالى ما يُشبِّهه بالمخلوقات مثل الوجه واليدين والقدمين والأصابع والأنامل، والنزول والصعود، ونحوها. مع أنَّ مثل هذه العبارات منتشرة في التوراة، وخصوصًا سفر التكوين، وهم يأخذونها على ظاهرها، تشبيهًا للخالق بخلقه، وهو ما يرفضه العقل المسلم، باتِّفاق السَّلف والخلف. ويعتبره كفرًا ومروقًا من الدِّين، ولهذا يُضَلِّل الجميع «المُشَبِّهة، والمُجَسِّمة» بل يُكَفِّرونهم إذا لم يكن لهم تأويلٌ تَسِيغه اللُّغة، فالله تعالى في الإسلام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

والمسلمون يقفون من هذه النصوص مواقف ثلاثة:

١ ـ السكوت عنها، وتفويض علمها إلى الله تعالى.

٢ ـ إثباتها لله تعالى مع نفي التشبيه والتمثيل، فيقال: لله يدٌ ليست كأيدينا، وعينٌ ليست كأعيننا.

٣ ـ تأويلها على ما تقتضيه اللغة من المجاز والكناية وغيرها، فيقال في قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: كناية عن البخل، ونحو ذلك[1].

والقول بأنَّ مشيئة الله في التعاليم الإسلاميَّة لا يَحُدُّها شيء، ولا أيُّ معيارٍ من معاييرنا، بما في ذلك «المعقوليَّة»؛ قولٌ مرفوض، فمشيئة الله تعالى وقدرته وعلمه وحياته وسمعه وبصره، وكل صفاته لا يجوز أن تخرج عن حدود العقل.

(١) للمزيد راجع ما ذكرناه حول هذا الموضوع في كتابنا: فصول في العقيدة بين السلف والخلف صـ ١٣ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

ولكنْ أيُّ عقل؟ نحن هنا نعني بالعقلِ العقلَ المنطقي العامَّ، لا العقل المُتَحَيِّز لثقافة مُعَيَّنة، أو المُتَشَبِّع بفكرةٍ رسخت فيه عن طريق التقليد، أو عن طريق الظنِّ والتخمين، فهذا ليس هو العقل الَّذي يحتكم إليه العالمُ المسلم، بل المراد هنا: العقل الحرُّ، الَّذي يبني مسلَّماته على أدلَّة قطعيَّة، لا يتطرَّق إليها خللٌ منطقي، أو رِيبة في مُقَدِّماتها. فهذا وحده هو الَّذي يعتمد عليه في ساحة العقائد، الَّتي ترفض الظنَّ في موضع اليقين، فقد عاب القرآن على المشركين بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وقد صنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا نشر في عَشَرَة مُجَلَّدات، لبيان قضيَّة جوهريَّة واحدة، وهي: «درء تعارض العقل والنقل»، وقد يُذْكَر أحيانًا تحت عنوان: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، وبيَّن في هذا الكتاب الكبير العميق أنَّ العقل المراد ليس هو العقل التابع لفلسفة اليونان، المُسَلِّم بكلِّ مقولاتها، الَّتي يعتبرها أصلًا، وما عداها تبعًا، بل المقصود العقل المُجَرَّد من ضغط المواريث والأهواء والتبعيَّة لأفكار الآخرين.

وما قاله ابن تيمية مُسَلَّم ومقبولٌ لدى علماء الإسلام بصفة عامَّة، من جميع المذاهب والمدارس والاتِّجاهات.

والَّذي نقرِّره بوضوح: أنَّ مشيئة الله وإرادته في التعاليم الإسلاميَّة مُقَيَّدة بحكمته سبحانه، فلا تنفصل المشيئة بحالٍ عن الحكمة، فلا يريد الله سبحانه شيئًا يُخالف حكمته في خلقه، أو حكمته في أمره، لأنَّ من أسماء الله تعالى الثابتة له: «الحكيم»، وقد ورد في القرآن عَشَرات المرَّات، فهو حكيمٌ فيما خلق، وحكيمٌ فيما شرع، لا يخلق شيئًا باطلًا، ولا يشرع شيئًا عبثًا.

QaradawiBooks.com

ولذلك لا يشـــاء لخلقه إلَّا ما فيه خيرُهم وصلاحهم، ولا يشاء شرًّا مطلقًا لهم، بل يشاء من الشـــرِّ الجزئيِّ ما هو من لوازم الخير. ولذا جاء في مناجاة النبيِّ ﷺ لربِّه: «**والخيرُ كلُّه في يَدَيْكَ، والشـــرُّ ليس إلَيْكَ**»(١).

حتى إنَّ طائفـــة المعتزلة من أوائل المُتَكَلِّمين المســـلمين: قالوا: إنَّ فعل الصلاح والأصلح واجبٌ على الله تعالى.

وأهل السُّنَّة لا يجرؤون على أن يقولوا: إنَّ هناك شيئًا واجبًا على الله. وإن كان محققوهم يقولون: إنَّه لا يفعل إلَّا ما فيه الخير والصلاح لخلقه؛ لأنَّه بر كريم، ورحمان رحيم، لا يبخل عن خير لعباده، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الوقفة الثالثة مع البابا:

والوقفة الثالثة: لمناقشة ما نقله عالم الإسلاميَّات المستشرق الفرنسي «أرنالدز» عن ابن حزم حيـــث إنَّه لم يُفهم حق الفهـــم، ولم يُوضع في موضعه الصحيح. فابن حزم يرفض مبدأ «الحسن والقبيح العقليين» الَّذي تبنَّاه المعتزلة، وينفي أن في الأشياء حســـنا ذاتيًّا اقتضى الأمر الشرعي بها، كما أنَّ فيها قبحًا ذاتيًّا اقتضى نهي الشـــرع عنها. بل الحُسن والقبح يأتي للأشياء من أمر الشرع بها، ونهيه عنها.

فالحَسَن ما حسَّنه الشـــرع، والقبيح ما قبَّحه الشـــرع. ولو أنَّ الشرع جاءنا بعكس ما جاءنا به لكان هو المطلوب منَّا.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأحمد (٨٠٣)، عن عليّ بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

فلو أنَّ الشرع أمرنا بالشِّرْك وعبادة الأوثان، لكان ذلك عند ابن حزم حسنًا، ما دام الله تعالى قد أمر به، ولو أنَّه نهانا عن التوحيد، لكان قبيحًا، لأنَّ الله نهانا عنه.

وذلك أنَّ ابن حزم ظاهـري النزعة، ينكر التعليل للأحكام، ويرفض إثبات الحكمة لها، ولهذا ينفي القياس في الفقه ولا يثبته، كما يرى ابن حزم: أنَّ العقل مخلوقٌ بعد أن لم يكن، وهو مخلوقٌ على ترتيب إرادة الله له، ولو شـاء لخلقه على ترتيبٍ آخر، غير الترتيب الَّذي نعرفه الآن، ولكان حكمه على الأشـياء، مـن حيث وجوب الواجبات، واسـتحالة المستحيلات، وإمكان الممكنات: حكمًا آخر غير حكمه الآن. هو ـ من الناحية العقليَّة المحض ـ يُجوِّز أن يكون المأمور به منهيًّا عنه، والمنهي عنه مأمورًا به.

نصُّ كلام ابن حزم من كتابه «الإحكام»:

وهذا ما قـرَّره بوضوح في كتابه الأصولي المعـروف «الإحكام في أصول الأحكام» يقول: «وليس اعتقادنا التوحيـدَ حقًّا ولا حكمةً بذاته، دون أن يكون لله فيه أمر، ولكن إنَّما صـار حقًّا وعدلًا وحكمة؛ لأنَّ الله تعالى أمر به ورضيه وسـمَّاه حقًّا وعدلًا وحكمة فقط، فهذا دين الله ﷻ الَّذي نصَّ عليه بأن يفعل ما يشاء؛ وأنَّه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأنَّه لو أراد أن يتَّخذ ولدًا لاصطفى ممَّا يخلق ما يشاء، وهذا هو القول الَّـذي دلَّت العقول على صِحَّته وبطـلان ما عداه، لأنَّ العقل يشـهد أنَّ الله تعالى خلقه، وأنَّه كان تعالى حقًّا واحدًا أوَّلًا، إذ لا نَفْسَ حيوانيَّـة ولا عقل مُرَكَّب فيهـا ولا في غيرها، ولا جوهـر ولا عَرَض، ولا عدد ولا معدود ولا رتبة من الرتب، وأنَّه تعالى خلق النفوس بعد أن

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

لم تكن، وخلــق العقول على ما هي عليه بعــد أن لم تكن، ورتب فيها الرتب على ما هي عليه بعد أن لم يكن شيء منها، وأنَّه لو شاء أن يخلق العقول على غير ما هي عليه، وأن يُرَتِّب الأمور فيها على خلاف ما رتَّبها لفعله، ولمَا تعذَّر ذلك عليه. ولكان حينئذ هو الحقُّ والعدل والحكمة، وما عداه الظلم والجور والعبث، لا مُعَقِّب لحكمه.

ومن ادَّعــى غير هذا، فقد ادَّعــى أنَّ رتبة العقــل المجهول في النفس كانت موجــودة؛ إذ لا عَقْل ولا نفس، وهــذا عين التناقض والخَبَال والخُلــف والمُحَال، ومن أنار الله تعالى عقله وســيَّره لأن يستضيء به، وتصوَّر له حدوث العالم بعد أن لم يكن، أشرف على صحَّة ما ذكرناه وأيقنه وشــاهده وعلَّمه ضرورة، ولــم يكن عنه له مَحِيد أصلًا. ومن أصحب الله تعالى نَفْسَه الحَيْرةَ، وتمييزَه الضَّعْف، تَحَيَّر وتصــوَّر الأمور بخلاف ما هي عليه، ولــم يخرج إلى طَرَف. وظنَّ الظنون المُرْدِيَة، ولله تعالــى الحمد على ما علَّم وهدى، لا إلٰه إلَّا هو الرحمٰن الرحيم»[1].

ومن أقوال ابن حزم في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام»: «والعقل لا يوجب على الباري تعالى حُكْمًا، بل الباري تعالى خالق العقل بعد أن لم يكن، ومرتِّب له، وفيه ما قد رتَّب ممَّا لو شاء أن يخترعه ويُرَتِّبه على خلاف ذلك لفعل، وإنَّما العقل مُفْهِم عن الله تعالى مُرَاده، ومُمَيِّز للأشياء الَّتي قد رتَّبها الباري تعالى على ما هي عليه فقط.

فقال هؤلاء: إنَّ الكفر والظلم لا يتوهَّم جواز استباحته.

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٤/٧٤، ٧٥)، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت.

QaradawiBooks.com

قال عليٌّ ـ أي ابن حزم ـ: ولا دليل على ما ذكروا، بل قد كان ممكنًا أنْ يأمرنا تعالى بالكفر به وبجحده وبعبادة الأوثان وبالظلم، ولكنَّه تعالى قد أخبرنا أنَّه لا يفعل ذلك، فعلمنا أنَّ ذلك لا يكون أبدًا، ليس لأنَّه مُمْتَنِع منه ﷻ لو شاء، ولا أنَّه تعالى عاجز عن ذلك لو أراده، ولكن لأنَّه لا يقول إلَّا الصدق، وقد أخبرنا أنَّ ذلك لا يكون، وأنَّه لا يرضى لنا الكفر، ولا يأمر أن نتَّخِذَ إلَهَيْن اثنين، فلمَّا أخبرنا بذلك مَنَعَنا من كونه، كما منعنا أنْ يأتي رسولٌ بعد مُحَمَّد ﷺ»[1].

هذا ما قاله ابن حزم في هذه القضيَّة الكبيرة، بناء على رأيه في أنَّ العقل مخلوق، وأنَّ العالَم كلَّه حادث، وأنَّ كلَّ شيء كان يمكن ـ لو أراد الله ـ أنْ يكون على غير ما هو عليه؛ إذ لا رادَّ لإرادة الله، ولا مُعَقِّب لحُكْمه.

ولكنَّ مذهب ابن حزم وفقهه، لا يوافق عليه جمهرة علماء الأمَّة الإسلاميَّة، وليس هو الفكر الَّذي ساد المدارس الإسلاميَّة، ووجَّه الثقافة الإسلاميَّة، بل هو فِكْرٌ مرفوض من معظم الطوائف الإسلاميَّة.

وممَّن ردَّ على هذا المنطق الأعوج، والفهم الأعرج: شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القَيِّم، فضلًا عن المعتزلة وسائر علماء الماتُرِيديَّة.

حتى الَّذين يقولون من الأشاعرة: الحَسَنُ ما حسَّنه الشَّرْع، والقبيحُ ما قبَّحه الشَّرْع، لا يصلون إلى الحدِّ الَّذي وصل إليه ابنُ حزم.

ولن أجدَ أبلغَ ولا أوضحَ من كلام شيخنا العلَّامة الدكتور مُحَمَّد عبد الله دراز في توضيح هذه القضيَّة؛ إذ قال في كتابه: «كلمات في مبادئ علم الأخلاق» وقد درَّسه لنا في تخصص التدريس بالأزهر،

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٦٩/١، ٧٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وذلك حين قرَّر أنَّ الإسلام يرجع إلى العقل والفطرة في الحكم الخُلُقي أو الإلزام الخُلُقي قبل ورود الشرع، وفي أثناء نزول الشرع، وبعد انتهائه. ويُدَلِّل على ذلك بالنصوص من القرآن والحديث، ثمَّ يقول مُتسائلًا: «وبعدُ، فما لي أراك هاهنا في شيء من الدهشة والاضطراب، كأنَّك تخشى أن نكون في هذه القضيَّة قد أقدمنا على أمرٍ خطير؟ لعلَّك سمعتَ بعض أهل العلم يقولون: إنَّ تحكيم العقول في حُسْن الأفعال وقُبْحها، إنَّما هو مقالة أهل الاعتزال، وإنَّ أهل السُّنَّة لا يرون للأفعال في نفسها حُسنًا ولا قُبحًا، وإنَّما الحَسَن ما أمر به الشَّرْع، والقبيح ما قبَّحه الشَّرْع!

ألا فاعلمْ أنَّه ليس في الدُّنْيا عاقل: أشعري ولا معتزلي ولا غيرهما، يُنكر ما منحه الله للإنسان من ملكة التمييز بين الأفعال، والحكم عليها بالحُسْن أو القبح، بمعنى أنَّ بعضها يُعَدُّ صفةَ كمال، وبعضها يُعَدُّ صفةَ نقص، أو أنَّ بعضها يقبله الطبع المستقيم، وبعضها يمجُّه الذَّوْق السليم، أو أنَّ بعضها يمدح فاعله، وبعضها يذمُّ مرتكبه... فذلك كله ممَّا لا جدال فيه.

وأمَّا الجدل الَّذي سمعتَ خبره بين الأشاعرة والمعتزلة كان في شأن آخر: وهو أنَّ هذه الأحكام الَّتي تُصْدرها عقولنا، هل نجزم مطابقتها للواقع، وبأنَّها هي حُكْم الله في نَفْس الأمر؟ وهل نعتقد أنَّ الله كَلَّفنا باتِّباعها، وسيُحَاسبنا عليها، ويَجْزينا بها مثوبةً أو عقوبة، من قبل أنْ يرسل بها رسولًا من عنده، أو ينزل إلينا بها كتابًا نقرؤه، أم أنَّنا ينبغي لنا ألَّا نتَّخِذ أحكامنا مرآةً صادقةً لأحكام الله، ولا نجترئ على القول بأنَّها مقياس أمره ونهيه، إلَّا أن يبعث إلينا من عنده، من يُقِرُّنا عليهما، ويُلْزِمنا بقضيَّتهما؟»[1] اهـ.

(١) انظر: كلمات في مبادئ علم الأخلاق صـ ٣٠، ٣١، نشر المطبعة العالمية، القاهرة، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

QaradawiBooks.com

وهذا ما قرَّره العلَّامة سعد الدِّين التَّفْتَازاني، المُتَكَلِّم الأصولي البلاغي الشهير في كتابه «شرح المقاصد» أي «مقاصد الطالبين في أصول الدِّين»، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قد اشتهر أنَّ الحسن والقبح عندنا شرعيَّان، وعند المعتزلة عقليَّان. وليس النزاع في الحُسْن والقُبْح بمعنى صفة الكمال والنقص، كالعلم والجهل، وبمعنى الملاءمة للغرض وعدمها، كالعدل والظلم.

وبالجملة: كلُّ ما يستحقُّ المدحَ أو الذمَّ في نظر العقول ومجاري العادات، فإنَّ ذلك يُدْرَك بالعقل، وَرَدَ الشرعُ أم لا.

وإنَّما النزاع في الحُسْن والقُبْح عند الله تعالى، بمعنى استحقاق فاعله في حُكْم الله تعالى المدحَ أو الذمَّ عاجلًا، والثواب والعقاب آجِلًا.

ومبنى التعرُّض للثواب والعقاب على أنَّ الكلام في أفعال العباد، فعندنا ذلك بمُجَرَّد الشرع، بمعنى أنَّ العقل لا يحكم بأنَّ الفعل حَسَن أو قبيح في حكم الله تعالى، بل ما ورد الأمر به فهو حَسَن، وما ورد النَّهْي عنه فقَبِيح، من غير أن يكون للعقل جهة مُحَسِّنة أو مقبِّحة في ذاته، ولا بحسَب جهاته واعتباراته، حتَّى لو أمر بما نهى عنه صار حسنًا وبالعكس.

وعندهم للفعل جهة مُحَسِّنة أو مُقَبِّحة في حكم الله تعالى، يدركها العقل:

بالضرورة، كحُسْن الصدق النافع، وقُبْح الكذب الضارِّ.

أو بالنظر، كحُسْن الكذب النافع، وقُبْح الصِّدْق الضارِّ.

أو بورود الشَّرْع، كحُسْن صوم يوم عرفة، وقُبْح صوم يوم العيد.

فإن قيل: فأيُّ فَرْقٍ بين المذهبَيْن في هذا القِسْم؟

QaradawiBooks.com

قلنا: الأمر والنهي عندنا من مُوجِبات الحُسْن والقُبْح، بمعنى أنَّ الفعل أمر به فحُسْنٌ ونُهِيَ عنه فقُبْح. وعندهم من مقتضياته، بمعنى أنَّه حُسْن فأمر به، أو قُبْح فنُهِيَ عنه، فالأمر والنهي إذا وردا كشفا عن حُسْن وقُبْح سابقَيْن حاصلَيْن للفعل لذاته أو لجهاته»[1].

الإسلام والعقل:

ركَّز بابا الفاتيكان في محاضرته على قضيَّة العقل وصلته بالإيمان، أو الإيمان وصلته بالعقل، واعتبر الديانة النَّصرانيَّة ديانةً قائمةً على العقل! ولهذا رَفَضَت العنف، بخلاف الإسلام، الَّذي اعتبر الجهاد فريضة. وهو يرى ذلك أمرًا ضد العقل، وهو يُنافي «الطبيعة الإلٰهيَّة»، الَّتي تَتَنافى مع كلِّ عملٍ يقوم على استخدام القوَّة مع الآخرين، وهذا أمرٌ يستحقُّ المناقشة.

العقل بين القرآن والكتاب المُقَدَّس:

هل صحيح أنَّ النَّصرانيَّة تُعنى في عقائدها برعاية العقل وترفض كُلَّ ما يُخالفه؟

وهل صحيح أنَّ الإسلام لا يُعنى بأمر العقل، ولا يبالي أنْ يناقضه في عقائده؟

الحقيقة: أنَّ الردَّ على هذين السؤالين كليهما بالنفي. بل العكس هو الصحيح، بل الصواب الَّذي تثبته كل البراهين من داخل الدينين ونصوصهما ومصادرهما، ومن خلال موقف كل منهما مع العقل والعلم في التاريخ.

(١) شرح المقاصد للتفتازاني (١٤٨/٢، ١٤٩)، نشر دار المعارف النعمانية، باكستان، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

من يقرأ الكتاب المُقَدَّس بعهدَيْه القديم والجديد، فلا يكاد تمرُّ به هذه الكلمات: عَقِلَ يَعْقِلُ، وتَفَكَّر يتفكَّر، ونَظَرَ ينظر، وكلمات: البرهان والحُجَّة والبيِّنة، والحكمة والفقه، والعلم والتَّدَبُّر، والألباب والنُّهى، وأمثالها.

وهذه الكلمات شائعة في القرآن الكريم، في سوره المَكِّيَّة والمدنيَّة، وقد ألَّفت كتابًا سمَّيْتُه: «العقل والعلم في القرآن الكريم»[1]، بيَّنت فيه موقف القرآن من العقل والعلم، وهو أمر في غاية الوضوح. وهو ما جعل كاتبًا عربيًّا مدنيًّا كبيرًا مثل الأستاذ عبَّاس العقَّاد، يؤلف كتابًا عنوانه: «التفكير فريضة إسلاميَّة».

إنَّ المُحَقِّقين من علماء الإسلام مثل: الباقِلَّاني والإسْفِرَايِيني والجُوَيْني والغزالي والرازي والآمِدي، وغيرهم: جعلوا العقل أساس النقل، ولو انتفى العقل لانهدم النقل. أي انتفى ثبوت الوحي والنبوَّة، لأنَّ النبوَّة لم تثبت إلَّا بالعقل؛ إذ يستحيل أنْ تثبت بالنقل، وإلَّا لزم الدَّوْر.

ويعبر الإمام الغزالي عن ذلك بأنَّ العقل هو الَّذي يثبت النقل، وبعد ذلك «يعزل العقل نفسه»[2] ليتلقى من الوحي الإلٰهي، قائلًا لكلِّ ما يأمره به أو ينهاه عنه: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويُقَرِّر المُحَقِّقون من العلماء: أنَّ إيمان المُقَلِّد غير مقبول، ولا يُحَقِّق له النجاة عند الله والخلاص في الآخرة، بل يجب أنْ يؤمن عن طريق الدليل، ولو كان إجماليًّا، وغير مُرَتَّب ترتيبًا منطقيًّا. قال تعالى:

(١) نشر مكتبة وهبة في مصر، ومؤسسة الرسالة في بيروت، وطبع عدة مرات.

(٢) انظر: المستصفى للغزالي صـ ٦، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. كما قال صاحب الجوهرة في علم التوحيد:

إِذْ كُلُّ مَنْ قَلَّدَ فِـي التَّوْحِيدِ إِيمَانُهُ لَمْ يَخْـلُ مِنْ تَرْدِيدِ[1]

وهذا بخلاف الإيمان في النَّصرانيَّة، فهو قائـم على الوجدان لا على البرهان، وعلى التسليم لا على التفكير، وعلى العقليَّة لا النظر ولهذا شاع عندهم قولهم: آمن ثُمَّ اعلَمْ! اعتقدْ وأنت أعمى! أغمضْ عَيْنَيْكَ ثمَّ اتْبَعْني!

الإمام مُحَمَّد عبده يردُّ على فرح أنطون:

وقد ثارت قضيَّة مشـابهة من بعض الوجوه، لقضيَّة البابا في عصر الشيخ الإمام مُحَمَّد عبده، أثارها الكاتب اللبناني فرح أنطون في «مَجَلَّة الجامعـة» الَّتي كان يصدرهـا، وزعم فيهـا أنَّ النَّصرانيَّة بمـا فيها من التسامح تتَّسع للعلم والفلسفة بما لا يتَّسع له صدر الإسلام، الَّذي يجمع بين السلطتين الروحيَّة والزمنيَّة في صورة قيادةٍ واحدة.

وردَّ عليه الأسـتاذ الإمام بمقالات علميَّة فِكْرِيَّـة موضوعيَّة مُوَفَّقة، بقلمه البليغ، وبعقله الكبيـر، وبثقافته الرحْبة، فأبطل حُجَّته، وأسـقط دعواه[2]، وبيَّن بما لا يدع مجالاً للشكِّ: أنَّ الإسلام بأصوله القطعيَّة هو الَّذي يتَّسـع حقًّا للعلوم والفلسـفات، وهو الَّذي أقام العلم والمدنيَّة، ووسَّع الفلسفة، ولم يعرف تاريخه صراعًا بين العلم والدين، كما عرفته أوربا المَسِـيحيَّة. وقد صـدر بعد ذلك فـي كتاب بعنوان: «الإسـلام

(١) انظر: حاشية البيجوري على الجوهرة صـ ٧٦، نشر دار السلام للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٢م.

(٢) كما رد على رينان في محاضرته في السوربون عن الإسلام والعلم، وأنَّ الإسلام لا يشجع الجهود العلمية! إلخ. كما ردَّ على المستشرق الفرنسي «هانوتو» بمقالاته الشهيرة. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والنَّصرانيَّة مع العلم والمدنيَّة» نشرته «المنار» وطبع عِدَّة مَرَّات، بتعليق تلميذه العلَّامة مُحَمَّد رشيد رضا.

غير مرخصة للطباعة

ولا بأس هنا أنْ نقتبس بعض ما قاله الشيخ الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو يتحدَّث عن أصول الإسلام، قال:

الأصل الأوَّل للإسلام: النظر العقلي لتحصيل الإيمان:

فأوَّل أساسٍ وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي. والنظر عنده: هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك معه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

بلغ هذ الأصل بالمسلمين أنْ قال قائلون من أهل السُّنَّة: إنَّ الَّذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحقِّ، ثمَّ لم يصل إليه ومات طالبًا غير واقف عند الظنِّ، فهو ناجٍ. فأيُّ سَعَة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟

الأصل الثاني للإسلام: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض:

أسرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره: اتفق أهل الملة الإسلاميَّة إلَّا قليلًا ممَّن لا ينظر إليه: على أنَّه إذا تعارض العقل والنقل[1]، أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان:

(١) يعني إذا تعارض الدليل العقلي القطعي مع ظاهر النقل غير القطعي الثبوت والدلالة ـ كما صرح به العنوان ـ يؤخذ بالدليل العقلي القطعي إلخ، وخرج بالقطعي: النظريات العقلية غير القطعية، كأكثر نظريات الفلاسفة والمتكلمين، فهذه لا تقدم على ظاهر النقل الصحيح، وإن =

QaradawiBooks.com

طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه.

والطريق الثانية: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة[1]، حتَّى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الأصل الَّذي قام على الكتاب وصحيح السُّنَّة وعمل النبيِّ ﷺ، مهدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتَّسع له المجال إلى غير حدٍّ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتَّى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا؟ وأيُّ فضاءٍ يسع أهل النظر وطُلَّاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء؟ إن لم يكن في هذا متَّسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها، ولا سماء بأجرامها وأبعادها!

أصل ثالث من أصول الأحكام في الإسلام: البعد عن التكفير:

هلا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم، وهو: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من

= لم يكن قطعي الدلالة. «فإن قيل»: وما تقولون في تعارض الدليلين القطعيين من العقل والشرع، وأيهما تقدمون؟ ما يقوله علماء الإسلام كافة: إنَّ القطعيين لا يتعارضان، وإن صحيح المنقول في الإسلام موافق دائمًا لصريح المعقول، ففرض التعارض بينهما باطل.

(١) خرج بهذا القيد: تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وأمثالهم، والتأويل طريق الخلف، والتفويض طريق السلف، ولكن لا كما قال الأستاذ بل مذهبهم إمرار النصوص على ظاهرها بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، فنقول: استوى على العرش، لا كاستوائنا، كما أنَّ علمه ليس كعلمنا، وكذا قدرته إلخ. رشيد رضا.

وأقول: التفويض هو مذهب أكثر السلف، والإثبات مع نفي التشبيه هو مذهب كثيرين أيضًا، وهو الذي اختاره ابن تيمية. انظر كتابنا: فصول في العقيدة بين السلف والخلف صـ ٥٦ وما بعدها.

QaradawiBooks.com

مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمِل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر.

فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولًا لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه؟ إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ، كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابويَّة، ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى في النار.

أصل رابع في الإسلام: الاعتبار بسنن الله في الخلق:

يتبع ذلك الأصلَ الأولَ في الاعتقاد ـ وهو ألّا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحقِّ على غير الدليل، وألَّا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات ـ أصلٌ آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها، ذلك هو أصل: العِبْرة بسُنَّة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر، وفي آثار سيرهم فيهم.

فممَّا جاء في الكتاب العزيز مُقَرِّرًا لهذا الأصل: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧]، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، إلخ.

في هذا يُصَرِّح الكتاب أنَّ لله في الأمم والأكوان سننًا لا تتبدَّل، والسنن: الطرائق الثابتة الَّتي تجري عليها الشؤون وعلى حسَبها تكون

QaradawiBooks.com

الآثار. وهي الَّتي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها بالقوانين، ما لنا ولاختلاف العِبَارات؟ والَّذي ينادي به الكتاب: أن نظام الجمعية البشريَّة وما يحدث فيها هو نظامٌ واحد لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع: أن ينظر في أصول هذا النظام حتَّى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سِيرته، وما يأخذ به نفسه. فإن غفل عن ذلك غافلٌ، فلا ينتظرن إلَّا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالِحِين نسبه، أو اتَّصل بالمُقَرَّبين سببه. فمهما بحث الناظر وفكَّر وكشف وقرَّر، أتى لنا بأحكام تلك السُّنَن، فهو يجري مع طبيعة الدِّين، وطبيعة الدِّين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فلم لا يعظم تسامحها معه؟»[1] اهـ.

وذكر الأستاذ الإمام أصْلَيْن آخرين من أصول الإسلام، هما:

الأوَّل: نفي السلطة الكهنوتيَّة المُتَحَكِّمة في ضمائر النَّاس.

والآخر: الجمع بين الدِّين والدُّنْيا.

أصول النَّصرانيَّة:

وقبل ذلك تحدث الإمام مُحَمَّد عبده عن أصول النَّصرانيَّة، وهل تتسع للعلم أو تضيق به؟ محتكمًا إلى مصادر النَّصرانيَّة وأقوال رجالها، فذكر ستَّة أصول: الخوارق، السلطة الكهنوتيَّة، ترك الدُّنْيا، الإيمان بغير المعقول، الكتب المقدسة تحتوي علوم الدين والدنيا معًا، التفريق بين المَسِيحيِّين وغيرهم حتَّى الأقربين.

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للإمام محمد عبده صـ ٥١ ـ ٥٥، نشر دار المنار، ط ٨، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.

QaradawiBooks.com

وسنكتفي بالاقتباس من كلام الإمام هنا: ما قاله في الأصلَيْن: الأوَّل والرابع. قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

الأصل الأوَّل للنصرانيَّة: الخوارق:

«أوَّل أصلٍ قام عليه الدِّين المسيحي، وأقوى عماد له هو: خوارق العادات. تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ دليلًا على صدقه إلَّا ما كان يصنع من الخوارق، وعددها في الإناجيل يطول شرحه. ثمَّ إنَّه جعل ذلك دليلًا على صحَّة الدِّين لمن يأتي بعده، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه في الإصحاح العاشر من إنجيل متَّى وغيره، إذا تتبَّعت جميع ما قال الأوَّلون من أهل هذا الدِّين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات، على صحَّة الاعتقادات، ولا يخفى أنَّ خارق العادة هو الأمر الَّذي يصدر مخالفًا لشرائع الكون ونواميسه، فإذا ساغ أنْ يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص.

زاد الإنجيل على هذا أنَّ الإيمان ولو كان مثل حبَّة خردل كاف في خرق نواميس الكون، كما قال في الإصحاح السابع عشر من متى (١٠): «فالحقُّ أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبَّة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم»، وفي الحادي عشر من مرقص (٢٣): «لأنِّي الحقَّ أقولُ لكم: إن من قال لهذا الجبل: انتقل وانطرح في البحر. ولا يشك في قلبه، بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له (٢٤) لذلك أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم».

فكل بحث يؤدي إلى أنَّ للكون شرائع ثابتة وأنَّ للعلل أو الشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكامًا في معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبَّب

QaradawiBooks.com

عنها، أو ما استحال وجوده لوجودها كان مضادًّا لهذا الأصل في أي زمن. وقد كان كل علم من علوم الأكـــوان لا بدَّ فيه من هذا البحث، فكل علم مضاد لهذا الأصـــل، ثمَّ إنَّ صاحب الاعتقاد بهـــذا الأصل لا يحتاج إلى البحث في الأسباب والمسبَّبات، لأنَّ اعتقاده في الشيء أن يكون وإرادته لأن يكون كافيان في حصوله، فهو في غنـــى عن العلم، والعلم عدو لما يعتقد. فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه.

الأصل الرابع للنصرانيَّة: سلطة الرؤساء الدِّينيِّين:

وبعد هذا الأصل أصـــل آخر، وهو: الســـلطة الدينيَّـــة الَّتي منحت للرؤساء على المرؤوسين في عقائدهم، وما تُكِنُّه ضمائرهم.

وقد أحكم هذه السلطة ما ورد في (١٦: ١٩) من إنجيل متَّى: «أعطيك مفاتيح ملكوت الســـماوات، فكلُّ ما تربطه في الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وكلُّ ما تَحُلُّه على الأرض يكون محلولًا في السماوات»، وفي (١٨: ١٨) منه: «الحقُّ أقول لكم: كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولًا في السماء».

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص: إنَّه ليس بمسيحي صار كذلك. وإذا قال: إنَّه مسيحي فاز بها. فليس المعتقد حرًّا في اعتقاده، يتصرف في معارفه كما يرشد عقله، بل عينا قلبه مشدودة بشفتي رئيسه. فإذا اهتزت نفســـه إلى بحث وقفها القابض على تلك السلطة. وهذا الأصل إن نازع فيه بعض النَّصارى اليوم، فقد جرت عليه النَّصرانيَّة خمســـة عشـــر قرنًا طوالًا»[1] اهـ.

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية صـ ٢٢، ٢٣.

QaradawiBooks.com

أثر الأصول المَسِيحيَّة في الحياة العلميَّة والفِكْرِيَّة:

ولم يكتف الإمام مُحَمَّد عبده ببيان الأصول النظريَّة لكل من الدينين: الإسلام والنَّصرانيَّة، بل ذكر ما أنتجته هذه الأصول في الواقع التاريخي، مستشهدًا بالوقائع الثابتة والمعروفة من تاريخ الديانتين، وتاريخ الأمَّتين: الإسلاميَّة والمَسِيحيَّة، وخصوصًا تاريخ أوربا، الَّتي بلغت اليوم من الرقي العلمي ما بلغت، ويحاول بعضهم أنْ ينسب هذا إلى المَسِيحيَّة.

هذا وكل الدارسين المحققين يعلمون: أنَّ المَسِيحيَّة وتعاليمها المثالية في واد، والحضارة الأوربيَّة أو الغربيَّة في واد آخر، وشتان ما بينهما.

ولهذا قلت في بعض ما كتبت: إنَّها ليست حضارة المسيح ابن مريم، وإنَّما هي حضارة المسيح الدجال.

وأحيل القارئ الكريم إلى «الملاحق» في آخر الكتاب، ليقرأ عن «مقاومة النَّصرانيَّة للعلم في التاريخ»[1].

* * *

(١) انظر: ملحق (٦).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٣

نتائج الأصول الإسلاميَّة في الحياة العلميَّة والفِكْرِيَّة للمسلمين

وكما بيَّن الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده آثار الأصول العقديَّة الَّتي قامت عليها الديانة المَسِيحيَّة في حياة النَّصارى العلميَّة والفِكْرِيَّة، وضرب من الأمثلة، وذكر من الوقائع، ما يقنع كل عاقل، ويخرس كل مكابر: ذكر في مقابله نتائج الأصول العقديَّة الَّتي قامت عليها الديانة الإسلاميَّة، وآثارها في الحياة العلميَّة والفِكْرِيَّة للمسلمين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلامَ أفضت طبيعةُ الإسلام بالمسلمين؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأوَّلين؟ فتح عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصر، واستولى بجيشه على الإسكندريَّة بعد لَحاق النبيِّ ﷺ بالرفيق الأعلى بستِّ سنوات في رواية، وتسع سنوات في رواية أخرى، والإسلام في طلوع فجره وتفتح نوره. فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من اليعقوبيِّين اسمه يوحنا النحوي، كان في بدء أمره ملاحًا يعبر النَّاس بسفينته، وكان يميل إلى العلم بطبيعته، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم، ثمَّ اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم؛ وقد أحسن من العلم فنونًا كثيرة، حتَّى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته.

QaradawiBooks.com

يقول كثير من مُؤَرِّخي الغربيِّين ومُؤَرِّخي المسلمين: إنَّ ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه، ووقعت بينهما محبَّة ظهر أمرُها واشتهر، حتَّى قال أحد فلاسفة الغربيِّين: «إنَّ المحبَّة الَّتي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا تُرِينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحُرَّة والرأي العالي: بمجرَّد ما أُعتق من الوثنيَّة الجاهليَّة، ودخل في التوحيد المُحَمَّدي أصبح على غاية من الاستعداد للجَوَلان في ميادين العلوم الفلسفيَّة والأدبيَّة من كلِّ نوع».

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدِّين عن استعمالهم، حتَّى كانت دفاترهم بالرُّوميَّة في سوريا، ولم تُغَيَّر بالعربيَّة إلَّا بعد عشرات من السنين، فاحتكَّت الأفكار بالأفكار، وأفضت سماحة الدِّين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع.

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبيَّة ثمَّ العقليَّة:

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام، أخذ الخليفة علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، يحضُّ على تعليم الآداب العربيَّة، ويطلب وضع القواعد لها، لما رأى من حاجة النَّاس إلى ذلك، وأخذ المسلمون يتحسَّسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالًا مع ما يدعوهم إليه دينهم، وتُنَبِّههم لطلبه شريعتُهم، وإن كانت الحروب الداخليَّة الَّتي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع على أمر الخلافة، قد شغلتهم عن كلِّ شيءٍ من مصالحهم، فإنَّها لم تشغلهم عن تَلَمُّس العلوم والتناول منها بالتدريج على سُنَّة الفِطْرَة. فالبراعة في الآداب ـ من علم بوقائع العرب وتاريخهم، وقول الشعر، وإنشاء البليغ من النثر ـ قد بلغت في خلافة بني أُمَيَّة مبلغًا لم

QaradawiBooks.com

تبلغه أُمَّة قطُّ في مثل مُدَّتِهـا، وكان الخلفاء الأُمَوِيُّـون يعلون منزلتها، ويرفعون مكانات الشـعراء والخطباء والعلماء بالسِّـيَر، ثمَّ ظهرت آثار العلوم العقليَّة فـي آخر دولتهـم، وترجمت جملة من الكتـب العقليَّة والصناعية قبل نهاية القرن الأول.

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام، ولم يسيروا في الزهد سـيرة الخلفاء الراشـدين، فقد جاء رسـول من الفرس إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فلما سأل عنه دل عليه فذهب إليه، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء، وجاءت رسـل الملوك إلى معاوية رحمه الله، فإذا هو في قصر مَشِيد مُحَلَّى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربيَّة، مُزَيَّن بالجنَّات والرياض وينابيع الماء، مفروش بأحسن الفرش، يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه، وإنَّما تناول مباحًا وتمتَّع برخصة آتاه الله إياها. ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنون الإبداع في الصنعة على اختلاف ضروبها.

اشتغالهم بالعلوم الكونيَّة في أوائل القرن الثاني:

انقضت دولة بني أُمَيَّة والنَّاس في ظلمات من الفتن كما قلنا، ودالت الدولة لبني العبَّاس، واستقرَّت في نصابها من آل بيت النبيِّ قرب نهاية الثلث الأوَّل مـن القرن الثاني للهجرة (سـنة ١٣٢هـ)، ثمَّ نقل المنصور عاصمة الملك إلى بغداد، فصـارت بعد ذلك عاصمـة العلم والمدنيَّة أيضًا، وأخذ المنصور أيضًا ينشـئ المدارس للطبِّ والشريعة، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه في تعلم العلوم الفلكية، وأكمل حفيده الرشـيد ما شرع فيه، وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها،

QaradawiBooks.com

وجاء المأمون فوصلت به دولــة العلم إلى أَوْجِ قوتهــا، ونالت به أكبر ثروتها، ويقال: إنَّه حمل إلى بغــداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآســتانة، فوجــد ممَّا فيها مــن النفائس كتــاب بطليموس في الرياضة السماويَّة، فأمر المأمون في الحال بترجمته وسمَّوه بالمجسطي، ولا يسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العبَّاس أبناء عم الرسول ﷺ[1].

إنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة:

وقد أخذت دولة الإسلام تعتني بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول ســواها، حتَّى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد، ومنها ستَّة آلاف في الطبِّ والفَلَك لا غير. وكان من نظامها أنْ تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة، وكان فيها كُرَتان ســماويتان، «إحداهما» من الفضَّة، يقال إنَّ صانعها بطليموس نفسه، وأنَّه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينــار. «والثانية» من البرونــز. ومكتبة الخلفاء في إسبانيا بلغ ما فيها ســتَّمائة ألفِ مُجَلَّد، وكان «فهرســها» أربعة وأربعين مُجَلَّدًا. وقد حقَّقوا أنَّه كان في إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عموميَّة، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصَّة للمطالعة والنسخ والترجمة.

وبعض الخاصَّة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه. يقال: إنَّ ســلطان بخارى دعا طبيبًا أندنوسيا ليزوره، فأجابه: إنَّ ذلك لا يمكنه؛ لأنَّ كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها،

(١) يلاحظ أن أشد أولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم أعلمهم بالدين الإسلامي وأشدهم محافظة عليه.

QaradawiBooks.com

وهو لا يستغني عنها كُلَّها. وكان حُنَيْن بن إسحاق النَّسْطُوري في بغداد ممَّن جعل في داره مكتبة عامَّة يفد إليها طُلَّاب العلوم العقليَّة والرياضيَّة، وكان يَتَبَرَّع بمُذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه»[1] اهـ.

تعانق الدين والعلم في تاريخنا الإسلامي:

والدارس لحضارتنا الإسلاميَّة، ولتاريخنا الإسلامي، بعمق: يجد فيه مآثر ومزايا لا توجد في غيره من تواريخ الأمم والحضارات، وكلها من آثار الإسلام وتعاليمه، ونضحه على الأمَّة الَّتي صنعت هذا التاريخ.

من هذه المآثر والمناقب المشهورة: أنَّ العلم والدين في حضارتنا يتعانقان، ولا يتصارعان، ويتفقان ولا يختلفان، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين. ولهذا لم يقم عندنا ما قام عند أمم أخرى ـ مثل الأمم الأوربيَّة في عصورهم الوسطى ـ من صراع تأججت ناره بين العلم والدين، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين الشريعة والحكمة.

لقد عرف تاريخ أوربا هذه المعارك المشتعلة بين العلم والدين، وبعبارة أخرى: بين رجال العلم والفكر من روَّاد الابتكار والاختراع في مجالات العلم المختلفة من ناحية، وبين رجال الكنيسة الغربيَّة الممثلين للدين والمتكلمين باسمه من ناحية أخرى... فقد تبنوا نظريَّات معينة تلقوها من فلسفة اليونان، أضفوا عليها لونًا من القداسة والعصمة ـ وهي فكرٌ بشريٌّ محض ـ ولم يسمحوا لأحد أن يخالفها، أو يخرج عن إطارها، ومن فعل ذلك استحقَّ لعنة الله، وحكم عليه بالإلحاد والهرطقة، والمروق من الدين.

(١) الإسلام والنصرانية صـ ٧٧ ـ ٨١.

QaradawiBooks.com

وأنشـئت «محاكم التفتيش» الرهيبة، لتلاحق هؤلاء الَّذين اجترؤوا على حرمة الديـن، واسـتباحوا الحمى المحرم، وخرجـوا عن النطاق المرسوم، فقرروا مثلًا: أنَّ الأرض كروية، وليست مبسوطة.

هذا في الوقت الَّذي كان فيه طلاب العلم من المسلمين يقرؤون في كتب التفسير مثل: تفسـير الفخر الرازي، وفي كتب «علم الكلام» مثل كتب الجرجاني والتفتازاني، وفي كتب «الملل والنحل» مثل كتاب ابن حـزم (المتوفَّـى ٤٥٦هـ): فكـرة كرويـة الأرض والتدليـل عليها[١]، ولا يجدون في ذلك حرجًا في الدين، ولا عنتًا في الدنيا.

لقد نشـأ المنهج العلمي الاسـتقرائي التجريبي في تربة الحضارة الإسلاميَّة، ونما وترعرع على أيدي علماء المسلمين، نظريًّا وفلسفيًّا، وعلميًّا وتطبيقيًّـا. ونمت علوم الفيزياء والفلك والكيمياء والتشـريح والطب والرياضيات وغيرها، نموًّا حافلًا، تُوِّج بتطبيقات ناجحة، في شـتَّى مجالات الحياة والإنسـان. وكذلـك نقد المسـلمون المنهج الصوري القياسي الأرسطي، كما نرى ذلك في نقد ابن تيمية للمنطق نقدًا علميًّا رصينًا[٢].

---

(١) قال أبو محمد ابن حزم تحت عنوان «مطلب بيان كروية الأرض»: وهذا حين نأخذ إن شاء الله تعالى في ذكر بعض ما اعترضوا به، وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ البراهين قد صحت بأنَّ الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك، وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسـلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رحمهم الله لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسُّـنَّة قد جاءت بتكويرها، قال الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]. انظر: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٧٨/٢)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٢) انظر تحليلاً علميًّا مفصلاً لهذا النقد في كتاب الدكتور سـامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام صـ ١٩٠ ـ ٢٠٢، نشر دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٧م.

QaradawiBooks.com

وعن الحضارة الإسلاميَّة أخذ الأوربيون المنهج التجريبي. روجر بيكون، وفرنسيس بيكون وتلاميذهما، إنَّما تتلمذوا على المسلمين وعلومهم وحضارتهم، واقتبسوا منهم، ونقلوا عنهم، وهذا ما اعترف به المؤرِّخون والباحثون المنصفون من الغربيين، كما نقلنا من قبل.

التلاقي بين النقل والعقل:

ومن المؤسف: أن بعض من تعرَّضوا للعلاقة بين الدين والعلم أو بين النقل والعقل، أوهموا في كتاباتهم: أنَّ البيئة الدِّينيَّة لا تُهيِّئ لمناخٍ علميٍّ مزدهر، وذلك لما افترضوه في زعمهم من وجود صراعٍ بين النقل والعقل، أو بين النص الإلٰهي والاجتهاد البشري، وهذا يصدق في غير الإسلام والمسلمين. أمَّا بالنسبة لهما، فهو بالقطع غير صحيح، بل ترده النصوص، ويرده التاريخ، ويرده الواقع؛ فالعقل هو المخاطب بنص الشارع، والمكلف بفهمه والعمل به، والاجتهاد في دلالته، وملء الفراغ فيما لا نص فيه. وقد ترك النقل أو الوحي للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول، ولم يحجر عليه في ذلك، بل أمره وحرَّضه ودعاه للبحث الحر والإبداع.

حتَّى إنَّ علماء المسلمين اعتبروا تعلم العلوم الكونيَّة من الطبِّ والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها فرض كفاية على الأمَّة، إذا قام به عدد كاف يلبي الحاجة في كمه ونوعه: رفع عنها الإثم، وإن لم يقم أثمت الأمَّة كلها. وقد ذكرنا أنَّه لم يقم في حضارتنا صراع قط بين العلم والدين، أو بين الوحي والعقل، كما قام عند غيرنا.

والمُحَقِّقون من علماء الأمَّة اعتبروا الوحي والعقل هاديَيْن للخلق إلى الحَقِّ. يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة»:

QaradawiBooks.com

«لله ﷻ إلى خلقه رسولان، أحدهما: من الباطن وهو العقل، والثاني: من الظاهر وهو الرسول، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدَّم الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحَّة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أحال الله من يُشَكِّك في وحدانيَّته وصحَّة نبوَّة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صِحَّتها. فالعقل قائدٌ والدِّين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما كما قال الله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥][1] اهـ.

ويؤكد ذلك معاصر الراغب: الإمام أبو حامد الغزالي في عدد من كتبه. ففي مقدمة «المستصفى» يعتبر العقل: القاضي الَّذي لا يُعزل ولا يبدل، والشرع: الشاهد المزكي المعدل، ويجعل العقل مركب الديانة، وحامل الأمانة[2].

وفي «الإحياء» يقرر: أن لا غنى بالشرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشرع، «فإنَّ العلوم العقليَّة كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء». وينكر على من يظن أنَّ العلوم العقليَّة مناقضة للعلوم الشرعية، وأنَّ الجمع بينهما غير ممكن، وهو في رأيه ظن صادر عن عمى في عين البصيرة[3].

(١) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة صـ ١٥٧، ١٥٨، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) المستصفى صـ ٣.

(٣) إحياء علوم الدين (١٧/٣) نشر، دار المعرفة، بيروت. ويلاحظ أنَّ الراغب في الذريعة يرى الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر. انظر: الذريعة صـ ١٥٨.

QaradawiBooks.com

وفي «الاقتصاد في الاعتقاد» يصف عصابة الحقِّ وأهل السُّـنَّة أنَّهم: الَّذين وفَّقوا بين مقتضيات الشـرائع، وموجبات العقـول، وتحقَّقوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول، والحق المعقول[١].

وفي كتاب «معارج القدس» الَّذي ينسب للغزالي نقرأ هذه الكلمات:

«اعلمْ أنَّ العقل لن يهتدي إلَّا بالشرع، والشرع لم يتبين إلَّا بالعقل، فالعقل كالأُسِّ والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبُتَ بناء ما لم يكن أُسٌّ».

وأيضًا، فالعقل كالبصر، والشرع كالشـعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شـعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل مُتَّحِدَان[٢].

ولا غرو أنْ وجدنا في تاريخ حضارتنا كثيرًا ممَّن نبغوا في المجالين: العلوم الشرعيَّة، الَّتي تستفاد من الوحي والعلوم العقليَّة، الَّتي تستفاد من العقل. ومن هذه العلـوم العقليَّة: العلوم الطبيعيَّة (مـن الفَلَك والفيزياء والكيمياء وغيرها) والرياضيَّة، والطبِّيَّة.

فجابر بن حيان يسمَّى جابرًا الصوفي.

والخوارزمي مبتكر علم الجبر، إنَّما وصل إليه، وهو يؤلف رسـالة في فقه الوصايا والفرائض (أي علم الميراث). وقارئ الرسالة يجد القسم الأوَّل منها: فقهيًّا بحتًا، والقسم الثاني: رياضيًّا بحتًا.

---

(١) مقدمة الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي صـ ٢٤، نشر دار الأمانة، ط١، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

(٢) معارج القدس صـ ٥٧، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٥م، وانظر تعليقنا عليه في كتابنا: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه صـ ٤٥ وما بعدها، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

وابن رُشْد الحفيد صاحب كتاب «الكليات» في الطب، الَّذي تتلمذت عليه أوربا عدَّة قرون: هو نفسه صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المُقْتَصِد» في الفقه المقارن، وهو من أعظم ما كتب فيه، وهو قاض شرعي من فقهاء المالكيَّة.

والفخر الرازي صاحب «التفسير الكبير» والكتب الشهيرة في أصول الدِّين، وأصول الفقه، وهو من فقهاء الشافعيَّة، ومُتَكَلِّمي الأشعريَّة: كان من أشهر الأطبِّاء في زمنه، وقال الَّذين ترجموا له: لم تكن شهرته في علوم الطبِّ تقل عن شهرته في علوم الدين.

وابن النَّفِيس مكتشف الدورة الدمويَّة الصغرى، وأوَّل من أشار إلى الحويصلات الرئويَّة والشرايين التاجيَّة، هو أحد فقهاء الشافعيَّة الَّذين ترجم لهم ابن السُّبْكي في «طبقاته»، وترجم له الذهبي وغيره من مُؤَرِّخي الأعلام في الإسلام.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٤

الرفق والعنف أو السلام والحرب بين شريعة القرآن وشريعة التوراة

لقد كان أوَّل ما شغل البابا من أمر الإسلام ـ وهو الَّذي بنى عليه محاضرته ـ هو «العنف» الَّذي يظهر أنَّه يحسبه من طبيعة الإسلام، لماذا؟

لأمورٍ ثلاثة:

الأوَّل: أنَّ العقيدة الإسلاميَّة نفسها لا ترفض العنف، لأنَّ الله يمكن أنْ يشاء أي شيء، ولو كان يجافيه العقل.

الثاني: أنَّ الإسلام فرض على أتباعه الجهاد «أو الحرب المقدَّسة كما سماه»، وهو لون من استخدام العنف في مواجهة الأعداء، وليس كالمَسِيحيَّة الَّتي تقول: من ضربك على خدك الأيمن فأدِرْ له خدك الأيسر[1]!

الثالث: أنَّ الإسلام لا يرفض أنْ يدخل فيه الإنسان مكرهًا، تحت بارقة السيف، ولهذا أمر مُحَمَّد بنشر دينه بالسَّيْف، أمَّا آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقد كانت حين كان مُحَمَّد ضعيفًا، وتحت سلطان غيره من المشركين.

(١) انظر: إنجيل متَّى (٣٨/٥ ـ ٤٣)، ولوقا (٢٩/٦، ٣٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذه الأمور وغيرها من الشبهات الَّتي تثار دائمًا، وخصوصًا من الغربيين ـ ومنهم بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر ـ لتشويه صورة الإسلام، وإظهاره بأنَّه دين العنف والحرب، وأنَّه عدو السلام، وأنَّه يتعطَّش للدماء، وأحب شيء إلى أبنائه قتل البشر وإكراههم على الدخول في الإسلام.

وهذه ـ والله ـ فرية ما فيها مرية، وكذب صريح على هذا الدين المظلوم المفترى عليه.

كما أنَّها كلها أباطيل تكذبها الحقائق العلميَّة الَّتي لا ريب فيها وسنرد عليها جميعًا في الصفحات التالية.

وسأضطر أنْ أقتطف من كتابي الكبير الَّذي أقوم بإعداده منذ سنوات في «فقه الجهاد» بعض الفقرات للحاجة إليها الآن وإلى معرفتها، وإنْ كان هذا لا يغني عن قراءة كتاب «فقه الجهاد» كله، حينما ينشر، وأرجو أن يكون قريبًا إن شاء الله[1].

* * *

(١) كان هذا قبل صدور كتابنا: فقه الجهاد، الذي صدر منه بعد ذلك عدة طبعات.

QaradawiBooks.com

أولًا: الرفق والعنف أو السلام والحرب في شريعة القرآن

دعوة الإسلام إلى الرفق وكراهيته للعنف:

ومن اللازم هنا: أنْ نبين أنَّ الإسلام ـ على خلاف ما يتصوَّره أو يصوره بعض النَّاس ـ يدعو إلى الرفق وكراهية العنف، ويحرض على الرحمة، ويذم القسوة، كما نرى ذلك بينًا جليًّا كلَّ الجلاء في أحكامه وتعاملاته، وفي نصوص قرآنه وسنته، وقد ذمَّ القرآن اليهود بقسوة قلوبهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، ويمدح الله رسوله فيقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأحاديث الرسول الكريم تحض على الرفق، وتنفر من العنف، فقد قال ﷺ: «**إنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمر كلِّه**»(١)، وقال: «**ما دخل الرِّفْقُ في شيءٍ إلَّا زانه، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شانه**»(٢)، وقال: «**من حُرِمَ الرفق فقد حُرِمَ الخيرَ كُلَّه**»(٣)، وقال: «**إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»(٤).

وقد جعل القرآن الكريم عنوان رسالة مُحَمَّد «الرحمة» بل حصرها

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٢٤)، ومسلم في السلام (٢١٦٥)، عن عائشة.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٤)، وأحمد (٢٤٣٠٧)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٩٢)، عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٤) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٩٣)، عن عائشة.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فيها، حين قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وعبر مُحَمَّد ﷺ عن نفسه فقال: «**إنَّما أنا رحمة مهداة**»[١].

وقد جليت هذا المعنى ودللت عليه في الفصل التاسع من كتابي «الصحوة الإسلاميَّة من المراهقة إلى الرشد» تحت عنوان: «من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة».

ونشرت كتابًا موجزًا بعنوان «الإسلام والعنف» كان أصله بحثًا قدمته في أحد المؤتمرات بالدوحة حول الموضوع.

وقد فندت شبهات الَّذين جهلوا هذا الدين العظيم، واتهموه بأنَّه يحمل بذور العنف، حتَّى في عقائده ذاتها، مروجين أن «الإلٰه» في الإسلام هو إلٰه شدة وجبروت، لا إلٰه محبة ورحمة كما في المَسِيحيَّة[٢]!

وذكرت أنَّ المسلم يبدأ طعامه وشرابه وأعماله كلها بالبسملة أي يقول: «بسم الله الرحمٰن الرحيم».

---

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٥/١)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) ردَّدت هذا المعنى مجلة: العالم الإسلامي، التي يصدرها المنصرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فتقول ما ترجمته: «إن إلٰه الإسلام متكبر جبار، مترفع عن البشرية، يطلب أن يسير العابد نحوه! بينما إلٰه المسيحية عطوف متواضع، يتودد للناس، فيظهر في صورة بشر، وذلك هو الإلٰه الابن! فعقيدة التثليث في المسيحية قربت الإنسان من الإلٰه... أمَّا عقيدة التوحيد، فباعدت بين الإنسان والإلٰه!» انظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي صـ ٣٤، ٣٥. فانظر: ماذا يفعل الهوى والتعصب والتقليد الأعمى بالناس؟! فجعل الشرك ـ ومنه التثليث ـ يقرب الإنسان من الإلٰه، وجعل التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم وجميع الأنبياء يباعد بين الإنسان والإله! وليس هناك شيء يقرب من الإنسان وربه مثل التوحيد، الذي يزيل كل الوسائط المفتعلة، ويفتح الطريق مباشرة إلى الله.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويقرأ الفاتحة كل يوم ـ على الأقلِّ ـ أكثر من سبع عشرة مرَّة، وفيها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، في أولها، ثمَّ يقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٣].

واسم «الجبار» لم يرد في القرآن إلَّا مرَّة واحدة، في أواخر الحشر، وهو سبحانه جبار على الطغاة والفراعنة والمفسدين في الأرض، المتكبرين على خلق الله. وهؤلاء لا يؤدبهم إلَّا المتكبر الجبار، وهو مع تكبره وجبروته لا يتخلى عن رحمانيته ورحمته.

وهو كذلك «قهار» لهم لا يعجزه أمرهم، بل يحبط مكرهم، ويكفي عباده شرهم، ويجزيهم بسوء أعمالهم وبغيهم على خلقه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

ومن أسمائه الَّتي يجهلها هؤلاء أو تجاهلوها: الودود، اللطيف، القريب، المجيب، المقيت، المغيث، الرزاق، الفتاح، الوهاب، المحسن، الهادي، النور، العفو، الغفور، الشكور، الحليم، التواب، الولي، الحميد، المجير، النصير، إلى آخر ما يعرفه المسلمون من الأسماء الحسنى؛ الَّتي يمتدح الله بها، ويدعو المؤمنين أن يدعوه بها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

دعوة الإسلام إلى السلم وكراهية الحرب:

وكما دعا الإسلام إلى الرفق، وحضَّ عليه، ورغَّب فيه: نراه كذلك يرغب في السلام، ويحرص عليه، ويدعو إليه، ويعتبره هدفًا أصيلًا لدعوته، كما يتجلى ذلك في تعاليمه وأحكامه وآدابه.

QaradawiBooks.com

وهو أيضًا يكره الحرب، وينفر منها، ويحرص على أن يتفاداها ما استطاع، وإذا وقعت حاول أن يضيق دائرتها، وأن يقلل خسائرها، ويخفِّف من آثارها، ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

الإسلام والسلام من مادَّة واحدة:

فالإسلام والسلام ـ أو السِّلْم ـ من الناحية اللُّغويَّة مُشْتَقَّان من مادَّة واحدة، هي: «س ل م»، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقد فسرت كلمة ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ في الآية بـ «السلام» المقابل للحرب، كما يفيده ظاهرها، وبهذا تكون الآية دعوة للمؤمنين أن يدخلوا في السلام جميعًا، ولا يعرضوا عنه إذا دعوا إليه. وفسرت أيضًا كلمة ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ بـ «الإسلام» أي ادخلوا في شعب الإسلام كافة: عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته، فتدخلوا بذلك في السلم الحقيقي، السلام مع أنفسكم، ومع أسركم، ومع مجتمعاتكم، ومع النَّاس كافة.

إشاعة كلمة السلام في المجتمع وجعله تحيَّة الإسلام:

ومن روائع التوجيه والتربية هنا: أنَّ الإسلام يُحَبِّب إلى المسلم كلمة السلام، ومفهوم السلام بأساليب شتَّى، لا توجد في دينٍ آخر، أو أيديولوجيَّة أخرى.

فالسلام من أسماء الله تعالى الحسنى، الَّتي يدعو المسلم ربه بها، ويتقرَّب إلى الله بذكرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

QaradawiBooks.com

والمسلم يقرأ في القرآن: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والمسلمون هم الأمَّة الوحيدة الَّتي يوجد فيها اسم «عبد السلام» أي عبد الله.

والجنة الَّتي يتوق إليها كل مؤمن، ويعمل حثيثًا ليكون من أهلها، تسمى «دار السلام»، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وأكثر ما يسمع في هذه الجنَّة كلمة السلام، فهي تحيَّة المؤمنين في الآخرة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وكما أنَّ السلام تحيَّة المؤمنين في الآخرة، فهو تحيتهم في الدنيا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. و«إفشاء السلام» من أفضل خصال الإسلام. وقد جاء في جملة أحاديث: «**أفشوا السلام**»(١).

والمسلم إذا جلس في صلاته للتشهُّد: يلقي السلام على نبيه محمد، وعلى نفسه وأمته: «**السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»(٢). ثمَّ يخرج من الصَّلاة: بإلقاء تحيَّة السلام عن يمينه وعن يساره، إيذانا بأنَّه كان في الصَّلاة في حالة سلام، فإذا انصرف من الصَّلاة، استقبل النَّاس والحياة من حوله بالسلام. فهو سلام في عبادته، سلام في معاملته.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (٩٠٨٤)، عن أبي هريرة.
(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الآذان (٨٣١)، ومسلم في الصلاة (٤٠٢)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

المسلم لا يتمنَّى الحرب ويسأل الله العافية:

والمسلم لا يتمنى الحرب ولا يحرص عليها لذاتها، بل يتمنى السلام والعافية، ولكن إذا فرضت عليه الحرب في سبيل الله خاضها بقوَّة وجسارة وصبر، موقنا أن له إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ويقول النبي ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن أبي أوفى: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف**»(١).

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾:

والقرآن يُعَقِّب على غزوة الأحزاب، الَّتي هاجمت جموع المشركين فيها من قريش وغَطَفان وأحابِيشِهما: الرسول والمؤمنين معه في عُقْر دارهم بالمدينة بأعداد هائلة، يبتغون إبادتهم وتصفيتهم، جسديًّا وماديًّا، حتَّى لا تبقى لهم باقية؛ لولا أن عين الله لم تَغْفَل عن النبيِّ ﷺ وأصحابه، ويده سبحانه لم تتركهم وحدهم، ولا سيَّما أنَّ يهود بني قُرَيْظة انضمُّوا إلى المهاجمين، ونقضوا عهد الرسول في أحلك الأوقات وأحوجها إلى مساعدتهم: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۞ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١١].

---

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير.

QaradawiBooks.com

والمقصود هنا: ما عقَّب به القرآن على هذه الغزوة حين قال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فانظر إلى هذه الكلمة المعبرة: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، يذكرها تعالى في معرض الإنعام والامتنان على النبيِّ والمؤمنين: أنَّ المعركة انتهت بغير قتال، وبغير دماء، فقد كفى الله المؤمنين القتال. وهي نعمة جليلة تستحق الشكر لله تعالى. ولا يتصور أن يقال: هذا دين يتعطش للقتال، وإراقة الدماء.

القرآن يسمي صلح الحديبية ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾:

وفي غزوة الحديبية الَّتي بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ على الموت، أي القتال حتَّى الموت، وعدم الاستسلام بحال، ثمَّ شاء الله تعالى أن يتفاوض المسلمون والمشركون، وأن ينتهوا إلى الصلح المعروف بـ «صلح الحديبية» والَّذي يتضمَّن هدنة مدتها عشر سنوات، تغمد فيها السيوف، ويكف كل فريق يده عن الآخر: ينزل هنا قرآن يتلى، يسمي هذه الهدنة أو هذا الصلح: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وتنزل في ذلك سورة تسمى سورة «الفتح» تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ويسأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ: أفَتْح هو يا رسول الله؟ فيقول: «**نعم هو فتح**»[(١)]. استبعدوا أنْ يكون فتح بغير حرب، ولكن الله تعالى سماه فتحًا، بل فتحًا مبينًا، وامتنَّ به على رسوله عليه الصلاة والسلام، وأنزل في ذلك سورة سميت «سورة الفتح».

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، وابن أبي شيبة في المغازي (٣٨٠٠٢)، والحاكم في قسم الفيء (١٣١/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن مجمع بن جارية. وهو متَّفق عليه بنحوه عن سهل بن حنيف: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، والسائل فيه عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

وقال تعالى في هذه السورة ممتنًّا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، فهو هنا لا يمتن بكف أيدي المشركين عن المؤمنين فقط، بل يمتن أيضًا بكف أيدي المؤمنين عن المشركين أيضًا: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، فهذا هو التعبير الحقيقي عن حب السلام الَّذي يسود الطرفين معًا.

وإذا اضطرَّ المسلمون أنْ يخوضوا معركة فرضت عليهم، فإنهم مأمورون أن يقللوا من خسائرها البشريَّة والماديَّة ما أمكنهم، فلا يقتلون إلَّا من يقاتل: لا يقتلون امرأة ولا طفلًا، ولا شيخًا فانيًا، ولا راهبًا ولا فلاحًا ولا تاجرًا، إنَّما يقتلون من يقاتل فحسب. كما أنَّهم لا يقطعون شجرًا، ولا يهدمون بناء، ولا يفسدون في الأرض، ولا يقومون إلَّا بما تقتضيه ضرورة الحرب، وللضرورات أحكامها، وهي تقدر بقدرها. فقد قيد القرآن ارتكاب الضرورة بعدم البغي والعدوان، حين قال بعد تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

الجنوح للسلم إذا جنح العدو إليها:

ومع هذا كله، يأمر القرآن المسلمين أنْ يستجيبوا لدعوة السلم إذا دُعوا لها، ولو بعد وقوع الحرب، واشتعال وقودها، يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢].

حتى مع احتمال إرادة الخداع منهم، لا ينبغي أن ترفض دعوة السلم بإطلاق، وإنَّما يجب أن نجنح لها كما جنحوا. على أن يتم ذلك بشروطه وضوابطه الشرعية.

QaradawiBooks.com

فليس من الجنوح للسلم بحال: أن تغتصب أرضي بالسَّيْف، ثمَّ تفاوضني على أن أترك لك بالصلح ما أخذته مني بالسَّيْف، وتسمِّي ذلك جنوحًا للسلم، فهذا أبعد ما يكون عن الجنوح للسلم، كما يفعل ذلك الصهاينة اليوم[1]! والشرط أن يتوافر من العدو الجنوح للسلم، وأن تظهر دلائل ذلك في مواقفه.

وهذا ما طبَّقه الرسول ﷺ بالفعل، حين جنحت قريش إلى السلم يوم الحُدَيْبِيَة، ولم يكن ذلك عن ضعف منه، ولا تقاعس من أصحابه، فقد بايعوه على الموت، ولكنَّه جنح للسلم، حين لمس من خصومه الجنوح إليها، فكان الصلح الشهير، والصلح خير. وقد تَحَقَّق من ورائه خير كثير لدعوة الإسلام، ودخل الكثيرون من القرشيين في دين الله، من أمثال: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وغيرهما.

كراهة التسمية بـ «حرب»:

ومن دلائل حرص الإسلام على السلم، ونفوره من الحرب: هذا الحديث النبوي الَّذي يقول: «**أحبُّ الأسماءِ إلى الله عبدُ الله وعبدُ الرحمٰن، وأصدقُ الأسماء حارثٌ وهَمَّام، وأقبح الأسماء حربٌ ومرَّة**»[2].

حتى لفظة «حرب» من المفردات الَّتي يكره الإسلام تكرارها على ألسنة النَّاس، ولهذا يكرهها مُحَمَّد ﷺ، ويراها أقبح اسم يسمَّى به

(١) راجع كتابنا: فتاوى معاصرة (٤٦٥/٣) وما بعدها، فتوى: تحريم الصلح مع إسرائيل والرد على القائلين بذلك، نشر دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

(٢) رواه أحمد (١٩٠٣٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٠٤، ١٠٤٠)، عن أبي وهب الجشمي. وعلَّل الإمام الخطابي قبح اسم «حرب» لما في الحرب من المكاره.

QaradawiBooks.com

إنسان، وقد كان العرب في الجاهليَّة يُسَمُّون أبناءهم بـ «حرب» مثل حرب بن أُمَيَّة، والد «أبي سفيان بن حرب» وغيره.

وروى الإمام مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد ـ مرسلًا ـ أنَّ رسول الله قال لِلَقْحَة[١] (ناقة) تُحْلَب: «**من يَحْلُب هذه؟**». فقام رجل فقال: «**ما اسمك؟**». قال: مرَّة. قال: «**اجلس**». ثمَّ قال: «**من يَحْلُب هذه؟**». فقام رجل، فقال: «**ما اسمك؟**». قال: حرب. قال: «**اجلسْ**». ثمَّ قال: «**من يَحْلُب هذه؟**». فقام رجل، فقال: «**ما اسمك؟**». قال: يعيش! فقال له رسول الله ﷺ: «**احلُب**»[٢].

وروى الإمام أحمد في «مسنده»، وروى البخاري في «الأدب المفرد»، وغيرهما عن عليّ رضي الله عنه قال: لما ولد الحسن سميته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أروني ابني، ما سمَّيتموه؟**». قال: قلت: حربا. قال: «**بل هو حسن**». فلما ولد الحسين سمَّيته حربًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أروني ابني، ما سمَّيتموه؟**». قال: قلت: حربا. قال: «**بل هو حسين**». فلما ولد الثالث سمَّيته حربا، فجاء النبي ﷺ فقال: «**أروني ابني، ما سَمَّيْتُموه؟**». قلت: حربًا. قال: «**بل هو محسن**»[٣].

وفي إحدى الروايات أنَّ عليًّا قال: كنتُ أُحِبُّ أن أكتني بـ «أبي حرب»[٤].

---

(١) اللقحة: هي الناقة الحلوب القريبة العهد بالولادة.

(٢) رواه مالك في الاستئذان (٣٥٦٩)، تحقيق الأعظمي.

(٣) رواه أحمد (٧٦٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٦٩٥٨)، والحاكم في معرفة الصحابة (١٦٥/٣)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الطيالسي (١٣١)، والبزار (٧٤٣)، والطبراني (٧٩/٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٨٧٠): رواه البزار والطبراني بنحوه بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

QaradawiBooks.com

فهل يقف هذا الموقف، أو يوجه هذا التوجيه: إنسان متعطِّش للدماء، عاشق للحروب، كما تُصَوِّره أقلامُ المُتَعَصِّبين من المُنَصِّرين والمستشرقين وأمثالهم، ممَّن يقولون على الله وعلى رسله الكذب وهم يعلمون؟!

ثلث العام هدنة إجبارية:

ومن حرص الإسلام على السلم: أنَّه فرض على المسلمين هدنة إجبارية يمتنعون فيها عن القتال لمدة أربعة أشهر، أي ثلث العام، وهي الأشهر المعروفة بـ «الأشهر الحرم» وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب: ثلاثة سرد، وواحد فرد، أي ثلاثة متتابعة، وواحد منفرد عنها. قال تعالى في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وسياق الآية يجعل الشهر الحرام كالكعبة قياما للناس، فله من الثبوت ما للبيت الحرام، هذا في المكان، وهذا في الزمان.

وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ...﴾ [البقرة: ٢١٧]. فأقر بأنَّ القتال في الشهر الحرام ذنب كبير، وإن كان المشركون قد ارتكبوا ما هو أكبر منه عند الله.

ولكن إذا قوتل المسلمون في الشهر الحرام قاتلوا فيه ردًّا للعدوان، وتأديبًا للمعتدين، حتَّى لا يجترئوا على المسلمين، مستغلِّين تعظيمهم للشهر الحرام، يقول تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

QaradawiBooks.com

وقد ذهب الأئمَّة الأربعة والجمهور إلى أنَّ تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ. وذهب عطاء وغيره إلى أنَّه ثابت غير منسوخ. وكان عطاء يحلف بالله: ما يحل القتال في الشهر الحرام، ولا نسخ تحريمه شيء!

وقد ردَّ العلَّامة ابن القيم على كلِّ الأدلة الَّتي استدلَّ بها من قال بالنسخ، مبينًا أنَّ كل ما قيل فيه: إنَّ النبي ﷺ قد قاتل في الشهر الحرام، أنَّه كان قتال دفاع لما بدأه العدو من عدوان على المسلمين. قال ابن القيم: ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، وإنَّما الخلاف أنْ يقاتل فيه ابتداء.

وذكر ابن القيم آية [البقرة: ٢١٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ...﴾، وآية [المائدة: ٢]، ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، ثمَّ قال: فهاتان آيتان مدنيتان، بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام. وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ناسخ لحكمهما، ولا أجمعت الأمَّة على نسخه. ومن استدل على نسخه بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ونحوها من العمومات، فقد استدل على النسخ بما لا يدلُّ عليه. ومن استدلَّ بأنَّ النبي ﷺ بعث أبا عامر في سرية إلى أوطاس في ذي القعدة، فقد استدلَّ بغير دليل، لأن ذلك كان من تمام الغزوة الَّتي بدأ فيها المشركون بالقتال، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام[1] اهـ.

الحج تدريب للمسلم على السلام:

ومن عناية الإسلام بالسلام: أنَّه فرض على كل مسلم في العمر مرَّة عبادة خاصَّة، وهي حج البيت الحرام، وهي عبادة يتدرب المسلم فيها

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (٣٠٢/٣، ٣٠٣)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

على السلام، فهي تتم عادة في الشهر الحرام في ذي الحجة، وفي البلد الحرام مكَّة المكرمة، وفي حالة الإحرام، فتحوطه حرمة الزمان، وحرمة المكان، وحرمة الحال، حال الإحرام، الَّذي يحظر عليه فيه كل قتل حتَّى قتل الصيد، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ... ﴾ [المائدة: ٩٥].

فالمسلم في هذه الرحلة: سلام لكل من حوله، وكل ما حوله، حتَّى الأشجار والحشائش يحرم عليه أن يقطعها.

وكل مسلم عليه أنْ يقوم برحلة السلام هذه مرَّة في عمره فرضًا من الله، وله أن يحج ويعتمر تطوعًا ما يسر الله له ذلك، ابتغاء مرضاة الله.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثانيا: الرفق والعنف أو السلام والحرب في شريعة التوراة

ومن أراد أن يعرف فضل ما جاء به الإسلام من إصلاح وتجديد وتهذيب في أحكام الجهاد والقتال، وإقرار السلام في الأرض، بالنسبة لما كان عليه الوضع في الشرائع القديمة، والأمم السابقة، فعليه أنْ ينظر ـ ولو نظرة سريعة عاجلة ـ إلى ما اشتملت عليه «التوراة» الحالية، الَّتي يؤمن بها اليهود والنَّصارى جميعا، على أنَّها الكتاب الإلٰهي الَّذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وأعلن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: أنَّه ما جاء لينقض الناموس «الذي جاء به موسى»، بل جاء ليتممه[1]. عليه أن ينظر بإنصاف ليقارن ويوازن: ماذا جاءت به التوراة من أحكام في شأن الحرب والسلام، بالمقارنة بما جاء به الإسلام والقرآن!

ولا أدري أقرأ الغربيون ـ المَسِيحيُّون في جملتهم ـ الَّذين يتهمون الإسلام بأنَّه «دين السيف»، والذين يزعمون أنَّهم يؤمنون بـ «الكتاب المُقَدَّس» ومنه التوراة: هذه النصوص الَّتي سأوردها أقرؤوها أم لم يقرؤوها؟ وإذا قرؤوها فهل وَعَوْها أم لم يعوها؟ ومن هؤلاء البابا الحالي بنديكت السادس عشر.

والآن أودُّ أن نقف قليلًا عند ما تقوله التوراة ـ الَّتي نعتقد نحن المسلمين: أنَّها حرِّفت وبدِّلت لفظيًّا ومعنويًّا ـ والَّتي يؤمن بقدسيتها وإلهيتها: اليهود والمَسِيحيُّون جميعًا، ومنهم المبشِّرون والمستشرقون المتحاملون، الَّذين شنوا الغارة على شريعة الجهاد في القرآن، وفي سنة

(١) في إنجيل متَّى (١٧/٥): «لا تظنوا أنِّي جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لألغي، بل لأكمل». وانظر: إنجيل مرقص (٥٠/٩)، ولوقا (٤٣/١٤، ٣٥).

QaradawiBooks.com

مُحَمَّد ﷺ، وبالمقارنة والموازنة تتبين الحقائق، وبضدها تتميز الأشياء.

فأنصت أخي القارئ المنصف لما تقوله التوراة في أمر الحرب والقتال.

شرائع حصار وفتح المدن البعيدة في التوراة:

تقول التوراة في «سفر تثنية الاشتراع» في «الإصحاح العشرين» تحت عنوان «شرائع حصار وفتح المدن البعيدة» ـ وأعتقد أنَّ هذا العنوان من وضع ناشري التوراة ـ في الفقرة العاشرة وما بعدها:

«وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولًا، فإن أجابتكم إلى الصلح واستسلمت لكم، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدًا لكم. وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إلهكم في أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف. وأمَّا النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم الَّتي وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم الَّتي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا» انتهى.

هذا أمر التوراة الصارم لبني إسرائيل، أو لليهود المؤمنين بشريعة موسى في شأن حصار المدن البعيدة وفتحها: إذا أجابت دعوة السلم والصلح، فجميع أهلها عبيد لهم بلا استثناء! وإذا لم تسلم لهم فليحاربوا، وإذا سقطت في أيديهم، فعليهم أن «يقتلوا جميع ذكورها بحد السيف»، هكذا أمرهم «الرب الإلٰه». ولم تقبل شريعة التوراة من هؤلاء بديلًا لقتلهم بحد السيف: أن يدخلوا في دين اليهوديَّة مثلًا، أو يدفعوا لهم جزية، أو غير ذلك. ولم يستثنِ أمر «الربِّ الإلٰه» أحدًا من الذكور: لا شيخًا كبيرًا، ولا طفلًا صغيرًا.

QaradawiBooks.com

وقد قال القرآن هنا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، فاكتفى القرآن في قتال الأعداء: أنْ يثخنوهم، أي يضعفوهم، وفي هذه الحالة عليهم أنْ يشدوا الوثاق. أي: يكفوا عن القتل، ويأسروا بدل أنْ يقتلوا.

وقال القرآن أيضًا: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فجعل للأعداء المحاربين فرصة تنجيهم من القتل، ومن الدخول في الإسلام جبرًا، وهي إعطاء الجزية ﴿عَن يَدٍ﴾: أي عن قدرة، وهي مبلغ زهيد في مقابل التكفل بحمايتهم والدفاع عنهم. وهذه الجزية يدفعها القادرون على القتال، والقادرون على الدفع، فلا تدفعها النساء ولا الصبيان ولا العجزة ولا العميان، ولا الرهبان، وأمثالهم، ولا يدفعها الفقراء الَّذين لا يجدون كفايتهم من العيش، بل هؤلاء تكفلهم الدولة الإسلاميَّة، كما رأينا ذلك في عهد عمر بن الخطاب[(١)]. وهذا حكم مجمع عليه في مذاهب الفقه الإسلامي كافة[(٢)].

---

(١) انظر كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ١١٦، ١١٧، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٩، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م، وفيه أن خالد بن الوليد القائد المسلم المنتصر صالح أهل الحيرة من النصارى، وكتب لهم معاهدة جاء فيها هذا النص الصريح: «وجعلت لهم: أيَّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًا فافتقر، وصار أهل دينه ينصرفون عنه: طرحت عنه جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام». الخراج صـ ١٥٧، ١٥٨، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

(٢) انظر: الاستذكار لابن عبد البر (٢٥٠/٣)، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، والمغني لابن قدامة (٢١٩/١٣)، تحقيق د. =

QaradawiBooks.com

شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد:

أمَّا شـــعوب المنطقة الَّتي يطلق عليها «أرض الميعاد» ـ يعنون أرض فلسطين ـ فتقول التوراة في شـــأنها: «أمَّا مدن الشعوب الَّتي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها، كمُدُن الحثِّيِّين والأموريِّين والكنعانيِّين والفرزيِّين والحويِّين واليبوسيِّين، كما أمركم الربُّ إلهكم، لكيلا يعلموكم رجاســتهم الَّتي مارســوها في عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم»[1] انتهى.

هذه الشـــعوب الســـتَّة، يجب أن تباد إبـــادة تامَّـــة، دون أن يُبدؤوا بالدعوة، أو تقبل منهم جزيـــة، أو يعقد معهم صلح أو هدنة. ليس هناك إلَّا خيار السيف، والســـيف وحده. والموت والدمار الكامل هما نصيب هذه الشـــعوب المســـكينة، ولا ذنب لها إلَّا أنَّها ســـكنت فلســـطين أو ما سموه «أرض الميعاد» قبلهم!

ويعلق شـــراح التوراة على هذه الفقرة فيقولـــون: «كيف يمكن لإله رحيم أنْ يأمر بإهلاك كلِّ المراكز الآهلة بالسكان؟ لقد فعل ذلك لحماية بني إســـرائيل من عبادة الأوثان، الَّتي كانت، ولا بدَّ، ستجلب الخراب عليهم (١٨: ٢٠) وفي الحقيقة، لأنَّ بني إسرائيل لم يقضوا تمامًا على هذه الشعوب الشـــريرة كما أمرهم الله، تعرضوا باستمرار لاضطهادهم، وإلى الكثير من ســـفك الدماء والتخريب، أكثر ممَّا لو كانوا أطاعوا توجيهات الله قبل كل شيء! اهـ.

= عبد الله بن عبد المحسن التركي ود. عبد الفتّاح محمّد الحلو، نشر دار عالم الكتب، ط ٤، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

(١) انظر: الكتاب المقدس (التوراة) سفر التثنية (١٠/٢٠ ـ ١٨).

QaradawiBooks.com

وهكذا ترى هؤلاء الشراح برَّروا هذه الإبادة الكاملة لهذه الشعوب، بأمر الرب الإلٰه! بل أظهروا الأسف على نجاة الشعوب الَّتي لم يبدها سيف إسرائيل!

فأين ما جاءت به التوراة هنا ممَّا جاء به القرآن من أحكام؟!

إنَّ البلاد القريبة ـ الَّتي يطلق الشراح عليه «أرض الموعد» ـ «لا تُستبقى فيها نسمة حية!» يعني: الإبادة الكاملة، الاستئصال لأهل هذه البلاد!

فلا تستبعد ما صنعه الأوربيون النَّصارى حين نزلوا بأرض أمريكا الشماليَّة، من محاولة استئصال الهنود الحُمُر، أهل البلاد الأصليين! ولا تستغرب ما صنعه البريطانيون وغيرهم حينما ذهبوا إلى «أستراليا» واكتشفوها، وقضوا على سكانها الأصليِّين. وقد استخدم هؤلاء وأولئك في إبادة السكان الأصليين وسائل وأساليب لا تمتُّ إلى الأخلاق، ولا إلى الإنسانيَّة بصلة، ووصفها بـ «الوحشيَّة» ظلم كبير للوحوش؛ لأنَّ الوحوش لا تقتل من الحيوانات الأخرى إلَّا ما تحتاج إليه لأكلها. فإذا شبعت كفت. وهؤلاء لا يشبعون من قتل، ولا يرتوون من دماء، وإن سالت مدرارًا.

إن فكرة استئصال الأمم والشعوب الأخرى وإبادتها: «فكرة توراتية» أصيلة توارثها قرَّاء التوراة من اليهود والنَّصارى. وهي فكرة مرفوضة تمامًا في الإسلام، ولقد رأينا القرآن الكريم كيف شدَّد النكير على فرعون في ظلمه لبني إسرائيل، لأنَّه أراد إبادتهم بطريق بطيء، حيث أمر بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم. ومعنى تذبيح الذكور من المواليد وتقتيلهم: أن يباد الجنس بعد عقود من الزمان. قال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وهي فكرة مرفوضة تمامًا في الإسلام، لا بالنسبة إلى «الأمم البشريَّة» فحسب، بل بالنسبة إلى «الأمم الحيوانيَّة» أيضًا. فلم يجز الإسلام إبادة نوع أو أمَّة من العجماوات لسبب من الأسباب، وقال في ذلك رسول الإسلام ﷺ: «**لولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم، لأَمَرْتُ بقتلها**»[(١)]، أي بإبادتها وتخليص النَّاس من أذاها.

ولكن عليه الصلاة والسلام نظر إلى الأمر نظرة أعمق، فرأى أنَّ هذه الكلاب ـ بتعبير القرآن ـ «أمة» لها خصائصها وصفاتها الَّتي ميزتها عن غيرها من الأجناس الَّتي خلقها الله، وإنَّما خلقها لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وبهذه النظرة المتسامية سبق الإسلام بنحو أربعة عشر قرنًا: ما تنادت به البشريَّة اليوم من ضرورة الحفاظ على الأجناس الحية من الانقراض، وهو ما يسمونه «مبدأ نوح عليه السلام»[(٢)].

فانظر إلى هذا الأفق الرفيع الَّذي ارتقى الإسلام بالبشريَّة إليه، في المحافظة على أجناس الدواب والطيور وغيرها، واعتبارها «أمما أمثالنا» وقارن بينه وبين ذلك الحضيض الَّذي انحدر إليه الغربيون؛ الَّذين رضعوا

(١) رواه أحمد (١٦٧٨٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، عن عبد الله بن مغفل.

(٢) انظر كتابنا: رعاية البيئة في شريعة الإسلام صـ ٨٣ ـ ١٠٤، فصل: المحافظة على الموارد، نشر دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فكرة التوراة الاستئصالية مع لبان أمهاتهم. فاقترفوا من جرائم الإبادة ما يندى له جبين التاريخ، ولقد اتفق في ذلك النَّصارى واليهود جميعًا.

وقد رأينا بأعيننا ماذا فعلت العصابات اليهوديَّة الصهيونيَّة بأهل فلسطين، وشعب فلسطين؟ لقد قاموا بجملة مذابح بشريَّة رهيبة، من قتل النساء والأطفال والشيوخ والمدنيين العزل، بلا هوادة ولا رحمة، ولا مراعاة لأي اعتبار إنساني، كما فعلوا في «دير ياسين» وغيرها، حتَّى بقروا بطون الحوامل، وأخرجوا الأجنَّة من أحشائها، وعبثوا بها بسنان أسلحتهم، وهم يتضاحكون! وقتلوا الابن أمام عين أبيه، وعين أمه الوالهة! وذبحوا الأب والأم أمام أعين أبنائهما وبناتهما، وبهذه الوحشيَّة أدخلوا الرعب في قلوب الفلسطينيين، ففروا من ديارهم مذعورين، وتركوها لهؤلاء السفاحين الإرهابيين.

لقد كان هؤلاء المجرمون السفاحون يطبقون شريعة التوراة الَّتي لُقِّنوها: ألَّا تدعوا فيها نسمة حية!

هذه هي شريعة التوراة بالنسبة لهذه الشعوب: دمروها عن بكرة أبيها! لا تبقوا فيها نسمة حية! هكذا أمر الرب الإلٰه موسى وقومه وأتباعه أنْ يفعلوا بهذه المدن وأهلها حين تقع في أيديهم، وقد أمروا أمرًا ملزمًا: أنْ يبدؤوا بقتالهم وقتلهم. لا يدعونهم إلى دين يعتنقونه، أو يقبلون منهم جزية يدفعونها، فليس لهم خيار إلَّا السيف.

فأين هذا ممَّا جاء به القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١].

QaradawiBooks.com

وأين هذا ممَّا جاء به القرآن ـ حتَّى بعد ما سموه «آية السيف» من سورة التوبة ـ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]؟

وأين هذا من قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢].

إن من يقرأ ما جاء في نصوص الكتابين «التوراة والقرآن» عن السلام والحرب: لا يسعه إلَّا أن يقرأ قول البوصيري رَحِمَهُ اللَّهُ:

اللهُ أَكْبَـرُ! إِنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ وَكِتَابَـهُ أَقْـوَى وَأَقْـوَمُ قِيـلَا!
لَا تَذْكُرُوا الْكُتُبَ السَّوَالِفَ عِنْدَهُ طَلَعَ الصَّبَاحُ فَأَطْفِئُوا الْقِنْدِيلَا[1]!

فما قول البابا بنديكت فيما أريناه من نصوص التوراة: هل ينكرها؟ كيف وهو يؤمن بقول المسيح: ما جئت لأنقض الناموس «التوراة»؟

وأين يجد البابا «العنف حقًّا»؟ أيجده في نصوص التوراة الَّتي جاء بها موسى في زعمهم، أم يجده في نصوص القرآن؟

نصوص معبرة عن العنف البالغ من أسفار القوم:

وأضيف إلى هذه الفقرات الَّتي نقلناها من التوراة، فقرات أخرى من التوراة وملحقاتها من أسفار العهد القديم، نقلها العلَّامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه الشهير: «إظهار الحق»:

(١) انظر: المجموعة النبهانية في المدائح النبويَّة لإسماعيل النبهاني (١٨٣/٣)، نشر المطبعة الأدبية بيروت، ١٣٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

١ ـ في الباب الثالث والعشرين من «سفر الخروج» هكذا: (٢٣) «وينطلق ملاكي أمامك، فيدخلونك على الأَمُورِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ الَّذين أنا أخرجُهم (٢٤) لا تسجدنَّ لآلهتهم ولا تعبدها، ولا تعمل كأعمالهم، ولكن خرِّبهم تخريبًا، واكسر أوثانهم».

٢ ـ في الباب الرابع والثلاثين من «سفر الخروج» في حقِّ الأمم الست هكذا: (١٢) «فاحذر أن تعاهد مطلقا سكان تلك الأرض الَّذين تأتيهم لئلا يكونوا لك عثرة (١٣) ولكن اهدم مذابحهم، وكسِّر أصنامهم، واقطع أنساكهم».

٣ ـ في الباب الثالث والثلاثين من «سفر العدد»: (٥١) «مر بني إسرائيل وقل لهم: إذا عبرتم الأردن وأنتم داخلون أرض كنعان (٥٢) فأبيدوا كل سكان تلك الأرض، واسحقوا مساجدهم، واكسروا أصنامهم المنحوتة جميعها، واعقروا مذابحها كلها (٥٥)، ثمَّ أنتم إن لم تبيدوا سكان الأرض، فالذين يبقون منهم، يكونون لكم كأوتاد في أعينكم، ورماح في أجنابكم، ويشقون عليكم في الأرض الَّتي تسكنونها (٥٦) وما كنت عزمت أنِّي أفعل بهم سأفعله بكم».

٤ ـ في الباب السابع من سفر التثنية هكذا: (١) «إذا أدخلك الرب إلهك الأرض الَّتي تدخل لترثها، وتبيد الشعوب الكثيرة من قدامك: الحيثي والجرحيثاني والأموراني والكنعاني والفرزاني والحواني واليبوساني، سبعة أمم أكثر منكم عددًا وأشد منكم (٢) وسلمهم الرب إلهك بيدك، فاضربهم حتَّى إنك لا تبقي منهم بقية، فلا تواثقهم ميثاقًا ولا ترحمهم (٣) ولكن فافعلوا بهم هكذا: خرِّبوا مذابحهم، وكسِّروا أصنامهم، وقطِّعوا مناسكهم، وأوقدوا أوثانهم».

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال صاحب «إظهار الحق»:

فعلم من هذه العبارات: أنَّ الله أمر بإهــلاك كل ذي حياة من الأمم السبع، وعدم الشفقة عليهم، وعدم المعاهدة معهم، وتخريب مذابحهم، وكسر أصنامهم، وإحراق أوثانهم، وقطع مناسكهم، وشدد في إهلاكهم تشديدًا بليغًا، وقال: إن لم تهلكوهم أفعل بكم ما كنت عزمت أن أفعله بهم! ووقع في حــق هذه الأمم الســبعة «أنَّهم أكثر منكم عددًا وأشــد منكم». وقد ثبت في الباب الأوَّل من «سفر العدد»: أن عدد بني إسرائيل الَّذين كانــوا صالحين لمباشــرة الحروب، وكانوا أبناء عشــرين ســنة وما فوقها، كان ســتمائة ألف وثلاثة آلاف وخمســمائة وخمسين رجلًا (٦٠٣٥٥٠)[1]، وأنَّ اللاويين مطلقا ذكورًا كانوا أو إناثًا، وكذا إناث ســائر الأسباط الأحد عشر مطلقًا، وكذا ذكورهم الَّذين لم يبلغوا العشرين سنة خارجون عن هذا العدد، ولو أخذنا عدد جميع بني إســرائيل، وضممنا المتروكين والمتروكات كلهم بالمعدودين، لا يكون الكل أقل من ألفي ألف وخمســمائة ألف، أعني مليونين ونصف مليون (٢٥٠٠٠٠٠)، وهذه الأمم السبعة إذا كانت أكثر منهم عددًا وأشدَّ منهم، فلا بدَّ أن يكون عدد هذه الأمم أكثر من عددهم.

---

(١) ناقش العلامة ابن خلــدون في مقدمته (٩٢/١ ـ ٩٧)، تحقيق عبــد الله الدرويش، توزيع دار يعرب، دمشــق، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م. هذه الأرقــامَ، التي ذكرتها التــوراة عن أعداد بني إسرائيل، وبين بالمنطق التاريخي: أنَّها غير صحيحة على الإطلاق، وأنَّها لا تتفق مع المدة الزمنية التي قضاها بنو إسرائيل في مصر، وما أصابهم فيها من تذبيح وتقتيل. وهو تحقيق في غاية الصواب. وقد سبقه إلى شيء من ذلك: الإمام ابن حزم في كتابه: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٢٩/١ وما بعدها) تخبط كتب اليهود في عددهم حين خروجهم من مصر. ولكن العلَّامة رحمة الله في إظهار الحق يؤاخذهم بما ســجَّلوه في كتبهم المقدَّســة على أنفسهم.

QaradawiBooks.com

ونقل العلَّامة الشيخ رحمة الله من التوراة والعهد القديم من المذابح البشريَّة الَّتي ارتكبها أنبياء بني إسرائيل تطبيقًا لأحكام التوراة: ما تقشعر منه الأبدان، وتشيب لهوله الولدان. ننقل بعضه هنا للموازنة والاعتبار.

٥ ـ في البـاب الثاني والثلاثين من سـفر الخروج فـي حال عبادة العجل هكذا: (٢٥) «فنظر موسى عليه السلام العشـب أنَّه صار عريانًا إنَّما عرَّاه هارون لعار النجاسـة، وجعله عريانًا بين الأعـداء (٢٦) فوقف في باب المَحَلَّة، وقال: من كان من حـزب الربِّ فليُقْبِل إليَّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي (٢٧) وقـال لهم: هذا ما يقول الربُّ إلٰه إسـرائيل: ليتقلَّد كلُّ رجلٍ منكم سيفه، فجوِّزوا في وسط المحلة من باب إلى باب، وارتدُّوا وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه، وقريبـه (٢٨) فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى عليه السلام ، فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل». فقتل موسى عليه السلام على عبادة العجل ثلاثة وعشرين ألفًا.

٦ ـ وفي الباب الخامس والعشـرين من سفر العدد، أنَّ بني إسرائيل لمَّا زنَـوْا ببنات المؤاب، وسـجدوا لآلهتهنَّ، أمر الـربُّ بقتلهم. فقتل موسى أربعة وعشرين ألفًا منهم.

٧ ـ من طالع البـاب الحادي والثلاثين من سـفر العدد، ظهر له أنَّ موسـى عليه السلام لما أرسـل اثني عشـر ألف رجل مع فنيحاس بن العازار لمحاربة أهل مديان، فحاربوا وانتصروا عليهـم، وقتلوا كل ذكر منهم، وخمسـة ملوكهم وبلعام، وسبوا نسـاءهم، وأولادهم، ومواشيهم كلها، وأحرقوا القرى والدسـاكر والمدائن بالنار، فلمـا رجعوا غضب عليهم موسى عليه السلام ، وقال: لم استحييتم النسـاء؟ ثمَّ أمر بقتل كل طفل مذكر، وكل امرأة ثيب، وإبقاء الأبـكار، ففعلوا كما أمـر، وكانت الغنيمة من

QaradawiBooks.com

الغنم: ستمائة وخمسة وسبعين ألفا، ومن البقر: اثنين وسبعين ألفا، ومن الحمير: واحدًا وستين ألفا، ومن الأبكار: اثنتين وثلاثين ألفا، وكان لكل مجاهد ما نهب من غير الدواب، والإنسان، وما بين مقداره في هذا الباب. غير أن رؤساء الألوف والمئين، أعطوا الذهب لموسى والعازار: ستَّة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين مثقالًا. وإذا كان عدد النساء الأبكار اثنين وثلاثين ألفًا، فكم يكون مقدار المقتولين من الذكور مطلقًا، شيوخًا كانوا أو شبانًا أو صبيانًا، ومن النساء الثيبات؟!

٨ ـ عمل يوشع عليه السلام بعد موت موسى عليه السلام بالأحكام المندرجة في التوراة، فقتل «الملايين» الكثيرة، ومن شاء فليطالع هذا في كتابه من الباب الأوَّل إلى الباب الحادي عشر، وقد صرح في الباب الثاني عشر من كتابه: أنَّه قتل واحدًا وثلاثين سلطانًا من سلاطين الكفار، وتسلط بنو إسرائيل على ممالكهم.

٩ ـ في الباب الخامس عشر من سفر القضاة في حال شمشون هكذا: «ووجد فكا، أعني: خد حمار، فمد يده وأخذه، وقتل به ألف رجل»!

١٠ ـ في الباب السابع والعشرين من سفر صموئيل الأول: (٨) «وصعد داود ورجاله، وكانوا ينهبون أهل جاسور وجرز وعمالق؛ لأنَّ هؤلاء كانوا سكان الأرض من الدهر من حد سورا حتَّى حد مصر (٩) وكان يخرب داود كل الأرض، ولم يكن يبقي منهم رجلا، ولا امرأة، ويأخذ الغنم، والبقر، والحمير، والجمال والأمتعة، وكان يرجع ويأتي إلى أخيس». انظروا إلى فعل داود عليه السلام: إنَّه كان يخرب الأرض، وما يبقي رجلا، ولا امرأة من أهل جاسور، وجرز وعمالق، وينهب دوابهم وأمتعتهم!

QaradawiBooks.com

١١ ـ في البـاب الثامن من سـفر صموئيـل الثانـي: (٢) «وضرب المؤابيين وجرهم بالحبال، وأضجعهم على الأرض، وأعد حبلين للقتل، وحبلًا واحدًا للاستحياء، وكان المؤابيون عبيدًا لداود يؤدون إليه الخراج (٣) وضرب داود أيضًا هدر عازار بن راحوب ملك صوبا، إلخ (٥) فأتت أرام دمشـق، يعينوا هدر عازار ملك صوبا، وضرب (أي بالسيف) داود مـن أرام اثنين وعشـرين ألـف رجل». فانظـروا إلى فعـل داود عليه السلام بالمؤابيين، وهدر عازار، وجيشه وجيش أرام.

١٢ ـ الآية الثامنة عشـرة من الباب العاشر من سـفر صموئيل الثاني هكذا: «وهرب السـريانيُّون مـن بين يدي إسـرائيل، وقتـل داود من السريانيين سبعمائة مربك، وأربعين ألف فارس، وسوباك رئيس الجيش ضربه فمات في ذلك المكان».

١٣ ـ وفي الباب الثاني عشـر من سـفر صموئيل الثاني هكذا: (١٩) «فجمع داود جميع الشعب، وسار إلى راية فحارب أهلها، وفتحها (٣٠) وأخذ تاج ملكها عن رأسـه، وكان وزنه قنطارًا مـن الذهب، وكان فيه جواهر مرتفعة، ووضعوه على داود، وغنيمـة القرية أخرجها كثيرة جدًّا (٣١) والشـعب الَّذي كانوا فيها أخذهم ونشـرهم بالمناشـير، وداسهم بموارج حديد، وقطَّعهم بالسـكاكين، وأجازهم بقمين الأجاجر، كذلك صنع بجميع قرى بني عمون، ورجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم». ونقلت هذه العبارة لفظًا لفظًا، عن الترجمة العربيَّة المطبوعة سنة ١٨٣١م، وسنة ١٨٤٤م. فانظروا كيف قتل داود عليه السلام بني عمون قتلًا شنيعًا، وأهلك جميع القرى بمثل هذا العذاب العظيم الَّذي لا يتصور فوقه»[1] انتهى.

(١) انظر: إظهار الحق (٤٩٦/٢ ـ ٥٠٤)، نشر إدارة الشؤون الدينية، قطر، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

QaradawiBooks.com

هذا بعض ما نقله العلَّامة الشيخ رحمة الله في كتابه «إظهار الحقِّ» من كتب القوم المقدَّسة، بنصوصه وحروفه، على ما فيها من ركاكة، وهو غَيْض من فَيْض، وقليل من كثير. وكل نص منها ينضح بالقسوة البالغة، والوحشيَّة القاسية، الَّتي لا تعرف الرحمة إليها سبيلا، بل إنَّ الوحوش لا تقتل إلَّا ما تحتاج إليه لأكلها، أمَّا تذبيح الألوف، وعشرات الألوف، بل مئات الألوف من البشر، بهذه الاستهانة والسهولة، كأنَّما تبيد صراصير، أو نملا، لا لسبب ولا لجرم إلَّا لأنَّهم مخالفون في الدين، أو لأنَّهم سكان أرض معينة، وأن يتم ذلك من رسل وأنبياء لهم مقام عند الله، مثل موسى ويوشع وداود وغيرهم، فهذا هو الَّذي يذر الحليم حيران[1]!

ولا غرو أن تؤثر هذه القصص الإسرائيليَّة، والأخبار الدِّينيَّة، المنقولة من أسفار التوراة، وملحقات التوراة، من أسفار الأنبياء، في نفوس قرَّاء هذه النصوص المقدسة عندهم من اليهود والنَّصارى على السواء، وأن تنشئ فيهم تلك «النفسيَّة المتوحشة» الَّتي لا ترحم ولا ترق لضعيف، ولا مسكين، وتستحل قتل النساء والولدان والشيوخ، الَّذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا، ولا عجب أن وصف القرآن بني إسرائيل بهذا الوصف المعبر، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

(١) وإن كنا نحن المسلمين ـ بحكم تعظيمنا لرسل الله وأنبيائه ـ نبرئهم من هذه التهم الشنيعة، والجرائم الفظيعة، ونعتقد أن هذه الفظائع المروعة ممَّا أضيف إلى التوراة وملحقاتها، أو على الأقل بولغ فيها. ولم ينسب قرآننا أي شيء من هذه الفظائع إلى موسى أو داود عليهما السلام، بل ذكرهما بكل خير وفضيلة.

QaradawiBooks.com

وفي مقام آخر قال تعالى عن بني إسرائيل بعد أنْ أخذ عليهم الميثاق أنْ يعملوا الصالحات، حتَّى يستحقُّوا مثوبة الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

وهناك مواقف أخرى سنضعها كملاحق في آخر الكتاب[١].

❋ ❋ ❋

(١) انظر: ملحق (٤)، (٥)، (٦).

QaradawiBooks.com

٥

أكذوبة انتشار الإسلام بالسَّيْف

أشاع رجال الدين في أوربا، في حملتهم الظالمة على الإسلام، ومعهم البابا بنديكت السادس عشر: أنَّ الإسلام لم ينتشر في العالم إلَّا بحد السيف، وإخضاع النَّاس لعقيدته بالقوة العسكريَّة، ولولا هذا ما انفتحت له القلوب، ولا اقتنعت به العقول، ولكنَّها أكرهت عليه إكراهًا تحت بريق السيوف، فخيَّرهم بين الإسلام والقتل، فإما أن يسلم وإما أن يطير عنقه!

وقد قال الإمبراطور البيزنطي لمحاوره المسلم الفارسي فيما نقله عنه البابا: أرني ما الجديد الَّذي جاء به محمد، غير الأشياء الشريرة وغير الإنسانيَّة، مثل أمره بنشر دينه بحد السيف؟! نقلها البابا نقل المسلِّم لها، المقر بها.

وهذه فرية تكذبها تعاليم الإسلام القطعيَّة، وتكذبها وقائعه التاريخيَّة، ويكذبها المنصفون من المؤرخين المستشرقين أنفسهم.

فأما تعاليم الإسلام فهي تنفي الإكراه في الدين نفيًا مطلقًا عامًّا، بقوله تعالى في القرآن المدني: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

QaradawiBooks.com

وهو يؤكد ما جاء في القرآن المكي من قوله تعالى بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى على لسان نوح: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

وأمَّا دعوى تخيير النَّاس بين الإسلام والسيف، فهي كذبة أخرى: فالثابت بالنصوص الشرعية، والوقائع التاريخيَّة: أنَّ المسلمين كانوا يخيرون من يقاتلونهم ـ إذا كتب عليهم القتال ـ بين أمور ثلاثة: الإسلام أو دفع الجزية أو القتال. والجزية مبلغ زهيد يطلب من الرجال القادرين على القتال، ولا يؤخذ من امرأة، ولا صبي، ولا زمِن، ولا أعمى، ولا فقير، ولا راهب في صومعته، وتتفاوت بتفاوت قدرات النَّاس، فكل على قدر طاقته، وطلب مثل هذا المبلغ ـ في مقابلة حمايته وكفالته والدفاع عنه ـ ليس شيئًا باهظًا يكره صاحبه على ترك دينه والدخول في الإسلام.

كما تقول وقائع التاريخ أيضًا: إنَّ المسلمين حينما فتحوا البلاد، لم يتدخلوا قط في شؤون دينها، ولم يرغموا أحدًا قط على تغيير عقيدته، ولم يثبت التاريخ واقعة واحدة أكره فيها فرد غير مسلم، أو أسرة غير مسلمة، أو بلدة غير مسلمة، أو شعب غير مسلم، على الدخول في الإسلام.

كما أثبت التاريخ أنَّ كثيرًا من البلاد الإسلاميَّة الَّتي نعرفها اليوم: لم يدخلها جيش مسلم، ولكنَّها دخلت في الإسلام بتأثير التجار وغيرهم من النَّاس الَّذين لم يكونوا علماء ولا دعاة محترفين، وإنَّما أحبهم النَّاس لما رأوا فيهم من صدق الإيمان، وحسن الخلق، وحب الخير للناس، فكانوا أسوة حسنة، فأحبَّ النَّاس دينهم بحبهم، ودخلوا فيه أفرادًا وجماعات. هكذا دخل الإسلام في ماليزيا وإندونيسيا والفلبين وغيرها:

QaradawiBooks.com

بوساطة تجار حضرموت وأمثالهم ممَّن جاؤوا من جنوب اليمن، ضاربين في الأرض، مبتغين من فضل الله.

وهناك بلاد كثيرة في إفريقيا انتشر فيها الإسلام عن طريق الطرق الصوفيَّة، وعن طريق الاحتكاك بالمسلمين، والتأثُّر بسلوكيَّاتهم وآدابهم وأفكارهم.

وحتى البلاد الَّتي دخلتها الجيوش: كان وجودها محصورًا في العواصم والثغور، لا في كل المدن والقرى.

لم تدخل الجيوش الإسلاميَّة الَّتي فتحت الهند الكبرى، إلَّا في دائرة محدودة، ولكن انتشار الإسلام في القارة الهنديَّة، كان أبعد وأوسع بكثير ممَّا دخلته الجيوش، وامتدت دعوته شمالًا وجنوبًا، وشرقًا وغربًا، حتَّى كان من تأثيرها: وجود دولتين إسلاميتين كبيرتين هما: باكستان وبنجلاديش، ووجود أكبر تجمُّع إسلامي للمسلمين في الهند بعد إندونيسيا، برغم شكوى كثير من العلماء والناقدين من تقصير المسلمين خلال حكمهم الطويل للهند، من توصيل الدعوة للهندوس، ولا سيَّما دعوة طائفة «المنبوذين» للإسلام دين الأخوة والعدالة والمساواة.

السيف لا يفتح قلبًا:

ولقد اتخذ المبشرون والمستشرقون من الفتوح الإسلاميَّة: دليلًا على أنَّ الإسلام إنَّما انتشر بهذه القوَّة والسرعة، نتيجة لأنَّه قهر النَّاس بالسَّيْف، فدخل النَّاس تحت بريقه مذعنين طائعين.

ونقول لأصحاب دعوى انتشار الإسلام بالسيف: إنَّ السيف يمكنه أنْ يفتح أرضًا، ويحتل بلدًا، ولكن لا يمكنه أنْ يفتح قلبًا. ففتح القلوب

QaradawiBooks.com

وإزالة أقفالها: تحتاج إلى عمل آخر، من إقناع العقل، واستمالة العواطف، والتأثير النفسي في الإنسان.

بل أستطيع أن أقول: إنَّ السيف المسلَّط على رقبة الإنسان، كثيرًا ما يكون عقبة تحول بينه وبين قبول دعوة صاحب السيف. فالإنسان مجبول على النفور ممَّن يقهره ويذله.

ومن ينظر بعمق في تاريخ الإسلام ودعوته وانتشاره: يجد أنَّ البلاد الَّتي فتحها المسلمون، لم ينتشر فيها الإسلام إلَّا بعد مدة من الزمن، حين زالت الحواجز بين النَّاس والدعوة، واستمعوا إلى المسلمين في جو هادئ مسالم، بعيدًا عن صليل السيوف، وقعقعة الرماح، ورأوا من أخلاق المسلمين في تعاملهم مع ربهم، وتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع غيرهم: ما يحبِّبهم إلى النَّاس، ويقرِّبهم من دينهم، الَّذي ربَّاهم على هذه المكارم والفضائل.

وانظر إلى بلد كمصر، وقد فتحت في عهد أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب، ولكن ظل النَّاس على دينهم النصراني عشرات السنين، لا يدخل فيه إلَّا الواحد بعد الواحد. حتَّى إنَّ الرجل القبطي الَّذي أنصفه عمر، واقتص لابنه من ابن والي مصر: عمرو بن العاص، لم يدخل في الإسلام، رغم أنَّه شاهد من عدالته ما يبهر الأبصار.

وقد فند الكاتب الكبير الأستاذ عبَّاس العقَّاد هذه التهمة الباطلة في أكثر من كتاب له، وممَّا قاله:

«شاع عن الإسلام أنَّه دين السيف، وهو قول يصح في هذا الدين إذا أراد قائله: أنَّه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح، ولكنَّه غلط بين

QaradawiBooks.com

إذا أريد به أنَّ الإســلام قد انتشر بحد الســيف، أو أنَّه يضع القتال في موضع الإقناع.

وقد فطن لسخف هذا الادِّعاء كاتب غربي كبير، هو «توماس كارليل» صاحب كتاب «الأبطال وعبادة البطولة» فإنَّه اتَّخذ محمدًا ﷺ مثلًا لبطولة النبوَّة، وقال ما معناه:

«إنَّ اتِّهامه بالتعويل على السَّـيْف في حمل النَّاس على الاســتجابة لدعوته ســخف غير مفهوم. إذ ليس ممَّا يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به النَّاس، أو يستجيبوا لدعوته! فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومه، فقد آمنوا به طائعيــن مصدقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها».

قال العقَّاد:

«والواقع الثابت في أخبار الدعوة الإسلاميَّة: أنَّ المسلمين كانوا هم ضحايا القســر والتعذيب، قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشــركي قريش في مكَّــة المكرمة، فهجروا ديارهم، وتغربــوا مع أهليهم، حتَّى بلغوا إلى الحبشــة في هجرتهم، فهل يأمنون على أنفســهم في مدينة عربية قبل التجائهم إلى «يثرب» وإقامتهم في جوار أخوال النبي عليه السلام، مع ما بيــن المدينتيــن (يعني: مكَّة ويثــرب) من التنافس الَّذي فتح للمســلمين بينهما ثُغْرة للأمان؟ ولم يكن أهل يثرب ليرحِّبوا بمقدمهم لولا ما بين القبيلتين الكبيرتين فيها (قبيلتي الأوس والخزرج) من نزاع على الإمارة فتح بينهما كذلك ثغرة أخرى يأوي إليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة، وهو الجوار الَّذي لم يضق من قبل بكل لائذيه في عهد الجاهليَّة.

QaradawiBooks.com

ولم يعمد المسلمون قط إلى القوَّة إلَّا لمحاربة القوَّة الَّتي تصدهم عن الاقتناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها؛ لأنَّ القوَّة لا تحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء.

وقد بيَّن الأستاذ العقاد أنَّ المسلمين سالموا الحبشة ولم يحاربوها، وإنَّما حاربوا الفرس، وحاربوا الروم؛ لأنَّهم هم الَّذين بدؤوا بالعدوان على المسلمين.

قال: ولم يفاتح النبي ﷺ أحدًا بالعداء في بلاد الدولتين. وإنَّما كتب إلى الملوك والأمراء يبلِّغهم دعوته بالحسنى، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم، إلَّا بعد تحريضهم القبائل العربيَّة في العراق والشام على غزو الحجاز، وإعدادهم العدَّة لقتال المسلمين. وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخليَّة في بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهَّبُوا لمدافعتها والتحصُّن دونها»[1] اهـ.

قدرة الإسلام على الانتشار السلمي:

لقد ذكرت في كتابي «تاريخنا المُفْترى عليه» ـ وأعني بالطبع تاريخنا الإسلامي ـ أنَّ من مآثر هذا التاريخ: أنَّه سَجَّل لديننا قدرته على الانتشار السريع، ودخول الأمم فيه أفواجًا، بأدنى دعوة إليه، وإن لم يقم بهذه الدعوة أناس محترفون متخصِّصون في التبشير به، ومُتَفَرِّغون له.

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (٢١٩/٥، ٢٢٠)، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

QaradawiBooks.com

وســرُّ ذلك: أنَّ هذا الدِّين ـ بعقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته ـ تتوافر فيه: موافقة الفطرة، وملاءمة العقل، وتزكية النفس، وسموُّ الروح، وصحَّة الجســم، وتماسك الأســرة، وترابط المجتمع، وتحقيق العدل، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، وإشــاعة الخيرات، ومكافحة الشرور بقدر الإمكان.

وأبرز ما في هذا الدين: ســهولة عقائــده الَّتي ليــس فيها غموض ولا التواء ولا تناقض، تقبلها الفطرة السليمة، ويسلم لها العقل المستقيم.

فلا غرو أن انتشر دين الإسلام انتشار أضواء الصباح، فملأ الآفاق، ومحا الظلام، واســتنارت به الأبصار والبصائــر، ورحب النَّاس به في عامَّة الأقطار.

الحقُّ أن سهولة تعاليم الإسلام، وســمو أخلاق المسلمين: هما اللذان مهَّدا السبيل لدخول الأمم في الإسلام، وليس السيف، كما تقوَّل المُتَقَوِّلون.

انتشار الإسلام بفضائله وقوته الذاتية:

ولقد ألــف المؤرخ المعروف الدكتور حســين مؤنس كتابًا أســماه «الإســلام الفاتح»، وقال عنه: إنَّه دراســة في تاريخ البــلاد الَّتي فتحها الإســلام بفضائله وقوَّته الذاتيَّة، دون أنْ يُوجَفُ عليها بخيلٍ ولا ركاب. وقد تتَّبع انتشار الإسلام في هذه البلاد، وبيَّن كيف دخل الإسلام إليها، بما يقطع كلَّ شكٍّ، ويردُّ على كلِّ تَخَرُّص بأنَّ المسلمين استخدموا القوَّة في نشر دينهم. يقول الدكتور مؤنس رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لم يســبق فيما مضى أن كانت للمسلمين سياســة موضوعة لنشر الإسلام، يقوم عليها رجال متخصِّصون يجرون في أعمالهم على مناهج

QaradawiBooks.com

مقـــرَّرة، كما هـــي الحال فـــي النَّصرانيَّـــة مثلا، حيـــث نجـــد البابويَّة الكاثولوكيَّة، وما تبعها من منظمات كهنوتيَّة كالفرنشسكيَّة والدومينيكيَّة والجزويت، وكذلك بما تنظمه الهيئات البروتستانتية من حملات تبشير، تعد رجالها في معاهد متخصصة، وتنفق عليها المال الوفير، ثمَّ ترسلهم إلى البلاد البعيدة لدعوة النَّاس إلى أديانها بأســـاليب علميَّة مدروســـة، لإقناع من يصادفونه من النَّـــاس بصدق ما يدعون إليـــه، وإدخالهم في العقيدة، ويبلغ الأمر أن يطلـــق أولئك الدعاة الدُّنْيـــا، ليخلَّصوا للدعوة خلوصًا تامًّا، كما نعرفه في جماعات الرهبان المَسِيحيَّة والبوذيَّة أحيانًا.

في الإسلام لا نجد شيئًا من هذا إلَّا في عصرنا اليوم، عندما تزايدت تيارات التبشـــير غير الإســـلاميَّة، ولم يعـــد هناك مناص مـــن أن يعنى المســـلمون بالدعوة وتنظيمها، وإعداد الرجال القادرين عليها، فيما عدا ذلك كان الإســـلام هو الَّذي نشر نفســـه بنفســـه: هو الَّذي دعا لنفسه، واجتذب قلوب الناس؛ فأسلموا حبا في الإســـلام وإعجابًا به والتماسًا لرحمة الله وهداه.

وإنَّه لمِمَّا يستوقف النظر أنَّ قوَّة الإسلام الذاتيَّة قد غلبت تنظيمات الدعاة، وأثبتت أنَّها أفعل وأبعد أثرًا من المال الَّذي أنفقه الآخرون على دعاواهم، فانتشر واتَّســـع مداه، ودخلت فيه الأمم بعد الأمم، من تلقاء نفســـها بمجرد وصول الدعوة إليها. ولقد كان العرب يفتحون البلد من البلاد، ويعرضون الإسلام على أهله، ثمَّ يدعونهم وشأنهم؛ حتَّى يقتنعوا بفضائله الإنسانيَّة في تمهل، حتَّى لقد ذهب بعض الشانئين للعرب إلى أنَّهم لم يكونوا يهتمون بنشـــر دينهم، وأنَّ الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام، وما إلى ذلك ممَّا نجده مسطورًا في كتب أعداء الملَّة.

QaradawiBooks.com

وما كان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشـــر الإسلام، وإنَّما كان سيرًا على أســـلوب الدعوة في عهدها الأول: أسلوب عرض الدين على النَّاس، وتركهم بعد ذلك أحرارًا إلى أن يهدي الله منهم من يشاء.

ومن غريب ما حدث في بلاد مصر والأندلس: أن كان مسلك العرب هذا أدعى إلى دخول النَّاس في الإسلام، لأنَّهم تعوَّدوا ممَّن يتغلب على بلادهم: أن يكون شديد الحرص على إدخالهم في دينه، فما بال أولئك العرب لا يلحون على النَّاس في الدخول في الإســـلام، ولا يستخدمون القوَّة في ذلك، كما كان رجال دولتي الرومان والروم يفعلون؟

قال يولـــوج الراهب القرطبي المبغض للإســـلام: «فـــكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنَّهم لا يهتمون بدخول النَّاس في الإسلام، فتطلَّعت نفوس النَّاس إلى ذلك الإسلام يتعرفون عليه، لعلهم يعرفون السبب في اختصاص العرب أنفسهم به، وضنهم به على غيرهم، فما زالوا يفعلون ذلك، ويسألون عن الإسلام ويستفسرون، حتَّى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا».

ولقد قال الراهـــب القبطي يوحنا النقبوس شـــيئًا مـــن ذلك، وكان متأســـفًا: لأنَّ العرب لم يلجؤوا إلى القوَّة في فرض الإسلام، إذ لو أنَّهم فعلوا ذلك لزاد تمســـك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل ما يفرض بالقوة، ولمَا وجد الإســـلام هذا الطريق الســـهل الميسَّر إلى القلوب في مصر والأندلس.

وإنك لتحاول أن تدرس كيف أســـلم أقباط مصر، وكانوا من أشـــد النَّـــاس استمســـاكًا بعقيدتهم، حتَّى لقد استشـــهدت في ســـبيلها منهم جماعات بعد جماعات، على أيدي عتاة الرومان من أمثال دقلديانوس،

QaradawiBooks.com

وطغاة الروم من أمثال قيرس، فلا تجد لتساؤلك جوابًا؛ لأنَّ التحول إلى الإسلام في هذين البلدين ـ مصر والأندلس ـ تم في هدوء وسكون: انسابت العقيدة في قلوب النَّاس، كما ينساب الماء في أرض الزرع، فتخضر وتزهو وتثمر بإذن ربها.

وفي بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة بن نافع وأصحابه، فهذا الرجل الفريد في بابه، الَّذي وهب نفسه للإسلام، كان يلقى رئيس القبيلة، ويحدثه، ثمَّ يدعوه إلى الإسلام؛ فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة، ثمَّ يتبعه بعد ذلك قومه.

إن مداخل الإسلام إلى القلوب، هي سماحته وبساطته وإنسانيتَّه. إنَّه يقدِّم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال، ويفتح له إلى الله سبحانه بابًا واسعًا للمغفرة والأمل وثواب الآخرة، وكل ذلك دون مقابل. في أديان أخرى تفرض عليه أموال وهدايا وقرابين، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار... لا شيء من هذا في الإسلام، من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلًا ذلولًا.

أمَّا مسالك الإسلام، فهي دروب الأرض جميعا: لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر، بالحرب والسلم، لقد اخترق الجبال والشعاب، وأوجد لنفسه طرقًا ومسالك لا تخطر على بال أحد. لقد اشترك في نقل الإسلام حتَّى الكفار، ومن بين المستشرقين رجل ـ سنتحدث عنه ـ نصح حكومته بترك الإسلام ينتشر، حتَّى يشتغل به النَّاس، ويتركوا التجارة والأموال للهولنديين، وأخذت الدولة بكلامه.

وانساح الإسلام في إندونيسيا حتَّى عمها كلها. وحدث أن دخلت الإسلام قبيلة من قبائل الونقارا في غرب إفريقية على سبيل العناد مع

QaradawiBooks.com

جارتها، فلمـــا دخلت فيه ســـعدت وارتقت وســـادت وتبعتها خصمتها الأولى... بفضل هذه العداوة ـ الَّتي أصبحت صداقة ـ اخترق الإســـلام مائتي كيلو متر من الغابات الاســـتوائية الَّتي لا يخترقها أحد إلَّا بمشقة، وهذه القبيلة ـ وتسمى الونقارا آيا ـ تعتبر في مقدمة قبائل داهومي، منها اليوم أطباء ومهندسون ومدرســـون وقضاة. لقد دخلت الإسلام دون أن تدري أي حظ كتبه الله لها عن طريق هذا الدين.

الإسلام دينٌ طيَّار:

والخلاصة: أنَّ داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه، فقد تضمَّنت عقيدته وشـــريعته من الفضائل ما يجعل النَّاس يحرصون أشدَّ الحرص علـــى أن يدخلوا فيها، ثـــمَّ إنَّ الإســـلام يعطي الداخل فيه كل شـــيء ولا ينتقصه شيئًا، فإنَّ الإنسان يكســـب الصلة المباشرة بالله ﷻ، ويجد الطريـــق إليه فيقف بيـــن يديه خمس مـــرَّات في اليـــوم، ويدعوه دون حجاب، ويكسب الأمل في حياة أسعد وأرغد في هذه الحياة الدُّنْيا، ثمَّ حياة الخلود في دار البقاء، ولا يكلفه ذلك إلَّا النطق بالشهادتين، واتباع شريعة الإســـلام، وكلها خير ومســـاواة وعدل، في حين يتقاضى رجالُ الدين في الأديان الأخـــرى ـ كما قلنا ـ الإتاوات في كل مناســـبة، فهو يؤدي مالًا إذا تزوج، ويؤدي مالًا كلما أنجب ولدًا، ويؤدي مالًا ليعمد الطفل الوليد، ثمَّ مالًا آخر ليثبته في الجماعة المَسِـــيحيَّة إذا ضرب في مداخل الشباب، بل يؤدي مالًا إذا مات له ميت لكي تصلى عليه صلاة الجنازة، وبالإضافة إلى ذلك يظل عمـــره كله تابعًا لرجل الدين في كل ما يتصل بالله ســـبحانه، فإذا أراد الصَّلاة صلى عنـــه القس، ووقف هو يسمع ولا يملك إلَّا أن يقول: آمين، ولكن المسلمين وحدهم من دون

QaradawiBooks.com

أهل الأديان هم الَّذين يقــوم كل واحد منهم بصلاته بنفســه، حتَّى لو كانت صلاة الجماعة، وفي غير الإسلام يصلي القس مع مساعديه نيابة عن النَّاس.

والحقُّ أنَّ أصدق وصف يطلق على الإسلام في هذا المقام، أنَّه «دين طيار» ينتقل من إنسان إلى إنسان، ومن أمَّة لأمَّة في سهولة ويسر، كأن له أجنحة قدســية تحمله وتجري به مجرى الريح! وإنك لتنظر إلى خريطة الأرض، وتتأمل مدى انتشار الإسلام، فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما يتبين أن ثلث هذه المســاحة فحسب هي المســاحة الَّتي فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإســلام. أمَّا الباقية فقد دخلها الإسلام، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم، أو سياســة مرسومة لذلك! إنَّما هو الإسلام نفسه، جعله الله خفيفًا على القلوب، قريبا إلى النفوس، ما تكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتَّى يصل الإيمان إلى قلبه، فإذا اســتقرَّ في قلبه لم يكن هناك قط ســبيل إلى إخراجه منه، فهو الري الَّذي تظمأ إليه النفوس، وتســتقي منه، وهو الأمل الَّذي يخفف على الإنسان وطأة المســير في هذه الدُّنْيا، ويهون عليه الموت، فالمــوت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة، بل هو المدخل إلى الحياة فحسب، وبعد هذه الحياة حياة هي أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى.

ولعلَّ أكبر أســباب خفَّة الإسلام على القلوب هو: وضوحه وصدقه، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لا تؤمن بأســرار أو أمور لا يقبلها عقلك، كما ترى في الأديان الأخرى، حتَّى الغيب الَّذي تؤمن به في الإسلام حقيقة، فإنَّ الإنســان لا يرى الله بالعين المبصرة، وإنَّما يحس به في نفسه، وفي كل ما حولــه بالبصيرة المنيــرة، والحقيقة الكبرى في هــذا الكون هي

QaradawiBooks.com

خالقه، فهو الحق ولا حق غيره، وأنت لا تؤمن بالله؛ لأن داعيك إليه يأتي بمعجزات أو خوارق، وإنَّما هو يلفت نظرك إلى عجائب الخلق، وكل ما فيه معجز وخارق، وأنت تراه رأي العين في شخصك الَّذي يعيش ويتحرك ويفهم، لا تدري كيف، فإذا لم تؤمن بالله فكيف تعلل حياتك، وحركة جسدك، ونبض قلبك؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك مفر من أنْ تؤمن بنبيِّه الَّذي حمل إليك رسالته، فالله سبحانه حق، ونبيُّه صدق، وكل ما يعدك به القرآن حق وصدق، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتَّى في نفسك، وغاية ما تحتاج إليه من يذكرك بها، وهذا معنى من معاني تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم»[1] اهـ.

شهادة غوستاف لوبون:

هذه شهادة مؤرخ كبير مثل الدكتور حسين مؤنس، ولكن قد يقال: إنَّها شهادة مسلم لدينه. فهذه شهادة من مؤرخ غير مسلم، وهو المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي الشهير «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» الَّذي نقله إلى العربيَّة الأستاذ عادل زعيتر.

فلسفة القرآن وانتشاره في العالم:

يقول لوبون تحت عنوان «فلسفة القرآن وانتشاره في العالم»:

إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسة: أمكننا عدُّ الإسلام صورة مبسطة عن النَّصرانيَّة، ومع ذلك فإنَّ الإسلام يختلف عن النَّصرانيَّة في

(١) الإسلام الفاتح لحسين مؤنس صـ ٢٠ ـ ٢٤، نشر الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

كثير من الأصول، ولا سيَّما في التوحيد المطلق الَّذي هو أصل أساسي، وذلك أنَّ الإلٰه الواحد، الَّذي دعا إليه الإسلام، مهيمن على كلِّ شيء ولا تحف به الملائكة والقديسون وغيرهم ممَّن يفرض تقديسهم. (أي كما في النَّصرانيَّة)، وللإسلام وحده أنْ يباهي بأنَّه أوَّل دين أدخل التوحيد إلى العالم.

ويشير لوبون إلى يسر الإسلام، وسهولته البالغة والَّتي تتمثل في عقيدة التوحيد الخالص، وفي هذه السهولة سرُّ قوَّة الإسلام، وهي الَّتي تجعل إدراك الإسلام سهلًا على كلِّ إنسان، فليس في الإسلام غموض ولا تعقيد، ممَّا نراه في الأديان الأخرى وتأباه الفطرة السليمة، من المتناقضات والغوامض.

وقال: ولا شيء أكثر وضوحًا، وأقل غموضًا، من أصول الإسلام القائلة بوجود إلٰه واحد، وبمساواة جميع النَّاس أمام الله. وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها. وإنك، إذا ما اجتمعت بأيِّ مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة. وهو بذلك على عكس النصراني الَّذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث، والاستحالة، وما ماثلهما من الغوامض، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل!

وساعد وضوح الإسلام البالغ: ما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة، على انتشاره في العالم، ونفسِّر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النَّصرانيَّة للإسلام، كالمصريين الَّذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول

QaradawiBooks.com

الإسلام، كما نفسِّر السبب في عدم تنصِّر أيَّة أمَّة، بعد أنْ رضيت بالإسلام دينًا، سواء أكانت هذه الأمَّة غالبة أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني: ألا ينظر إلى قواعده الفلسفيَّة الضعيفة على العموم، بل إلى مدى تأثير عقائده.

والإسلام إذا ما نظر إليه من هذه الناحية: وجد أنَّه من أشدِّ الأديان تأثيرًا في النَّاس، وهو ـ مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصَّلاة، إلخ ـ يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلا عن ذلك، أن يصبَّ في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشبهات.

ولا ريب في أنَّ نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيما إلى الغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل مُحَمَّد مؤلفة من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائمًا، فلما ظهر محمد، ومضى على ظهوره قرن واحد، كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المدن الَّتي خفقت راية النبي فوقها.

والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس، وحملا على العدل والإحسان والتسامح.

وجرت حضارة العرب، الَّتي أوجدها أتباع محمد، على سنة جميع الحضارات الَّتي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات الَّتي ظهرت قبلها، لم يمس الزمن دين النبي الَّذي له من النفوذ ماله في الماضي، والَّذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أنَّ الأديان الأخرى الَّتي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتها.

QaradawiBooks.com

ويدين بالإســـلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص[١]، واعتنقته جزيرة العرب ومصر وسوريا وفلســـطين وآسيا الصغرى وجزء كبير من الهند وروســـيا والصين، ثمَّ جميع إفريقيَّـــة إلى ما تحت خطِّ الاستواء تقريبًا.

وتجمع بين مختلف الشعوب الَّتي اتخذت القرآن دستورًا لها وحدة اللغة والصلات الَّتي يعبر عنها مجيء الحجيج إلى مكَّة من جميع بلاد العالم الإسلامي.

وتجب على جميع أتبـــاع مُحَمَّد تلاوة القـــرآن باللغـــة العربيَّة بقدر الإمكان، واللغة العربيَّة هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشـــعوب الإســـلاميَّة من الفروق العنصرية تـــرى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام.

وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة، فعزوها إلى ما زعموه من تحلل مُحَمَّد وبطشه، ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إنَّ من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخـــرى من الصرامة، وإنَّ ما أباحـــه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبًا على الشـــعوب المســـلمة الَّتي عرفته قبل ظهور محمد، وإنَّ هذه الشعوب لم تجد نفعًا جديدًا في القرآن لهذا السبب.

وما قيل من دليل حول تحلل مُحَمَّد نقضه العلامة الفيلسوف «بيل» منذ زمن طويل. وقال بيل، بعد أن أثبت أن ما أمر النبي بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشد ممَّا أمر به النَّصارى:

(١) قيل هذا في القرن التاسع عشر، ومع هذا كان المسلمون أكثر من ذلك بكثير، وسيأتي من كلام «لوبون» نفسه ما يدلُّ على أنَّ المسلمين أكثر من ذلك.

QaradawiBooks.com

«إنَّ من الضلال، إذن، أنْ يعزى انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدُّنْيا إلى أنَّه يلقي عن كاهل الإنسان ما شقَّ من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنَّه يبيح له البقاء على سيئ الأخلاق، وقد دون «هوتنجر» قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فأرى ـ مع القصد في مدح الإسلام ـ أن هذه القائمة تحتوي أقصى ما يمكن أنْ يؤمر به إنسان من التحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن العيوب والآثام»[1].

وممَّا نبه إليه العلَّامة «بيل»: أنَّ ملاذ الجنة الَّتي وعد بها المسلمون لا تزيد على ما وعد به النَّصارى في الإنجيل. جاء في الإنجيل: «لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب إنسان: ما أعدَّه الله للذين يحبونه».

وسيرى القارئ، حين نبحث في فتح العرب وأسباب انتصاراتهم: أنَّ القوَّة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصرانيَّة الإسلام، واتخذوا العربيَّة لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة الَّتي لم يعرفوها من قبل.

(١) وقال الفيلسوف الشهير «كارلايل» في كتابه الأبطال، في فصله الذي كتبه عن البطل في صورة نبي، واتخذ النبي محمدًا نموذجًا ممثلًا للبطولة: «إن دينه ليس بالدين السهل، فإنه ـ بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر ـ لم يفلح في أن يكون دينا سهلا». انظر: الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد صـ ٤٦٠، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزميليه، نشر مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٧٠م.

QaradawiBooks.com

وقد أثبـــت التاريخ أنَّ الأديان لا تفرض بالقـــوة، فلما قهر النَّصارى عرب الأندلس، فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر القرآن بالسَّيْف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشـــعوب الَّتي قهرت العرب مؤخَّـــرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، الَّتي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها[١]، ويزيد عدد مســـلمي الهند اليوم يوما فيوما، مع أنَّ الإنجليز، الَّذين هم ســـادة الهند في الوقت الحاضر، يجهزون البعثات التبشـــيرية ويرسلونها تباعًا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن أقل انتشارًا في الصين الَّتي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلاميَّة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا[٢] في الوقت الحاضر.

وليس فيما يوصَم به الإسلام من الجبرية ما يزيد خطرًا على ما رددنا عليه، وليس في آي القرآن الَّتي ذكرناها آنفًا من الجبريَّة ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلًا[٣]. وهناك فلاسفة وعلماء لاهوت يعترفون

(١) هذه إحصائيات قديمة من القرن التاسع عشر، ومع هذا ليست دقيقة.

(٢) إذا كان المسلمون في الهند يزيدون على (٥٠) مليونا، وفي الصين على (٢٠) مليونًا، فكيف يكون عدد جميع المسلمين مائة مليون، كما قال الباحث من قبل؟!

(٣) بل هناك مئات الآيات من القرآن في سوره المكية والمدنية تثبت بكل وضوح: أنَّ الإنسان مكلف مختار، وأنَّه هو الذي يقرر مصير نفســـه، وأنَّ الله تعالى منحه من القوى والمواهب والملكات: ما يمكنه من صنع مصيره بيده، كما قال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾ [الإســـراء: ١٥]، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥] إلى آخره.

QaradawiBooks.com

بأنَّ مجرى الحوادث تابع لسـنَّة لا تتبدَّل، قال المصلـح الديني القدير لوثر: «يحتج على اختيار الإنسان وإرادته بنصوص الكتاب المُقَدَّس الَّتي لا تحصى، وإن شئت فقل بكل ما ورد في الكتاب المُقَدَّس».

وكُتب جميـع الأمم الدِّينيَّـة مُفعمة بالجبْرية الَّتي يسـميها القدماء بالقدر، ووضع القدماء القدر، الَّذي لا رادَّ لحكمه، على رأس كل أمر، عادِّين إيَّاه سـلطة مطلقة لا مناص للناس والآلهـة من إطاعتها، وحاول «أديب» على غير جدوى، أن يضرع إلى هاتـف الغيب الَّذي أخبره بأنَّه سيقتل أباه ويتزوج أمه، فلم يستطع ردًّا لحكم القدر الجبار.

ولم يكن محمـد، إذن جبريًّا أكثر من مؤسسـي الأديان الَّذين ظهروا قبله، ولم يسـبق مُحَمَّد في جبريته علماء الوقت الحاضر الَّذين أيَّدوا مع العلامة لابلاس رأي الفيلسوف ليبنتز في القول: «إنَّه إذا وُجد ذكاءٌ يَعرف، لوقتٍ، جميع قوى العالم، ومواضع ما فيه من الموجودات، ويستطيع أن يحللها، ويحيط بمحركات أعظم أجرام العالم وأصغر ذراته، فإنه لا يبقى عنده شيء غير معين، ويصبح الماضي والمستقبل حالا في نظره».

والجبرية الشرقيَّة الَّتي قامت عليها فلسفة العرب، ويستند إليها كثير من مفكري العصر الحاضر هي نوع من التسـليم الهادئ الَّذي يعلم به الإنسـان كيف يخضع لحكم القدر من غير تبرم وملاومة، وتسليم مثل هذا هو وليد مـزاج أكثر من أن يكـون وليد عقيدة، وقـد كان العرب جبريين فـي مزاجهم قبل ظهـور محمد، فلم يكـن لجبريتهم تأثير في ارتقائهم، كما أنَّها لم تؤد إلى انحطاطهم[1] اهـ.

(١) انظر: حضارة العرب لغوسـتاف لوبون صـ ١٣١ ـ ١٣٦، ترجمة عادل زعيتر، نشـر مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

QaradawiBooks.com

وكلام غوستاف لوبون عن «الجبريَّة» عند مُحَمَّد والعرب «أو المسلمين» غير دقيق، ويحتاج إلى توضيح وتعليق لا يسمح له هذا المقام.

توماس أرنولد ينصف الإسلام:

وإذا كان غوستاف لوبون الفرنسي قد أنصف الإسلام وتاريخ المسلمين في كتابه، فقد جاء بعده المستشرق البريطاني البحاثة الشهير «توماس أرنولد» الَّذي كان يعرف العربيَّة والفارسية وعددًا من اللغات الأوربيَّة، والَّذي أصدر كتابه القيم «الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميَّة» وكان ذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، (١٨٩٦م).

وقد طبع الكتاب بالإنجليزية عدة طبعات، ونقله إلى العربيَّة الدكتور حسن إبراهيم وزميلاه، ونشر عدة مرَّات ابتداء من سنة ١٩٤٧م.

والكتاب جدير بأن يقرأ، لما فيه من وقائع وأحداث مأخوذة من مصادر عدة وموثقة، ومكتوبة بلغات شتَّى، عكف الرجل عليها، حتَّى استخرجها من مظانِّها وحشدها في كتابه العلمي المُوَثَّق[1].

وكلُّها تؤكِّد هذه الحقيقة الَّتي وضحت وضوح الشمس في ضحى النَّهار: أنَّ الإسلام لم ينتشر قط بالسَّيْف في أي البلدان، ولا في أي عصر من الأعصار؛ بل انتشر بالسلم، وبالدعوة الهادفة، وبأخلاق المسلمين، وبسهولة فهم عقائد الإسلام وتعاليمه، ونحو ذلك من عوامل التأثير السلمي، الَّذي لا يشوبه أي لون من ألوان القوَّة المادِّيَّة.

وآخر دعوانا أنَّ الحمد لله ربِّ العالَمِين.

* * *

(١) انظر كتابنا: تاريخنا المفترى عليه صـ ١٩٧ ـ ٢٠٨، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الملاحـــق

١ ـ رد على تصريحات البابا بيان من الاتِّحاد العالمي لعلماء المسلمين: الإسلام دين العقل والرحمة.

٢ ـ بيان بشأن موقف بابا الفاتيكان من الإسلام والرسول ﷺ.

٣ ـ صفحات.. من مذابح النَّصـــارى ـ مذبحة الصليبيين في القدس.

٤ ـ بعض ما فعل الكاثوليك بالبروتستانت.

٥ ـ بعض ما فعل البروتستانت انتقامًا من الكاثوليك.

٦ ـ مقاومة النَّصرانيَّة للعلم في التاريخ.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

(ملحق ١)
رد على تصريحات البابا

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان من رئيس الاتِّحاد العالمي لعلماء المسلمين
الإسلام دين العقل والرحمة

فوجئت وفوجئ المسلمون في أقطار الأرض بتصريحات البابا بنديكت السادس عشر خلال زيارته إلى ألمانيا، حول الإسلام وعلاقته بالعقل من ناحية، وعلاقته بالعنف من ناحية أخرى.

وكنا ننتظر من أكبر رجل دين في العالم المسيحي: أن يتأنَّى ويتريث ويراجع ويشاور، إذا تحدث عن دين عظيم كالإسلام، استمر أكثر من أربعة عشر قرنا، ويتبعه نحو مليار ونصف من البشر، ويمتلك الوثيقة الإلٰهيَّة الَّتي تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشريَّة «القرآن الكريم» الَّذي لم يزل يقرأ كما كتب في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ولم يزل يتلى كما كان يتلى في عهد النبوَّة، ويحفظه عشرات الألوف. في أنحاء العالم.

(١) صدر هذا البيان بتاريخ ٢١ شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ١٤ سبتمبر ٢٠٠٦م، بتوقيع رئيس الاتحاد، أذاعته قناة الجزيرة، وبعض الصحف ووكالات الأنباء في حينه.

QaradawiBooks.com

ولكن البابا الَّذي قالوا: إنَّه كان يشغل مقعدًا لتدريس اللاهوت وتاريخ العقيدة في جامعة غوتنبورغ منذ ١٩٦٩م سارع بنقد الإسلام، بل بمهاجمته في عقيدته وشريعته، وبطريقة لا يليق أن تصدر من مثله.

ففي وسط الجموع الحاشدة الَّتي تزيد على مائتي ألف شخص، تحدث البابا عن الإسلام دون أنْ يرجع إلى كتابه المقدس «القرآن»، وبيانه من سنَّة نبيه محمد، واكتفى بذكر حوار دار في القرن الرابع عشر بين إمبراطور بيزنطي ومسلم فارسي مثقف. وكان ممَّا قاله الإمبراطور للرجل: «أرني ما الجديد الَّذي جاء به محمد؟ لن تجد إلَّا أشياء شريرة وغير إنسانيَّة، مثل أمره بنشر الدين ـ الَّذي كان يبشر به ـ بحد السيف!».

ولم يذكر البابا ما ردَّ به الفارسي المثقف على الإمبراطور.

ونسي البابا: أنَّ محمدًا جاء بالكثير الكثير الَّذي لم تأت به المَسِيحيَّة ولا اليهوديَّة قبلها، جاء بالمزج بين الروحيَّة والمادِّيَّة، وبين الدُّنْيا والآخرة، وبين نور العقل ونور الوحي، ووازن بين الفرد والمجتمع، وبين الحقوق والواجبات، وقرر بوضوح الإخاء بين الطبقات داخل المجتمع، وبين المجتمعات والشعوب بعضها وبعض، وقال كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وشرع مقابلة السيِّئة بمثلها، وندب إلى العفو، ودعَا إلى السلام، ولكن أمر بالإعداد للحرب: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأنصف المرأة وكرَّمها إنسانًا وأنثى وابنةً وزوجةً وأمًّا وعضوًا في المجتمع.

QaradawiBooks.com

ونسخ كثيرًا من الأحكام الَّتي كانت أغلالا في اليهوديَّة، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأمَّا ما قاله الإمبراطور البيزنطي من أنَّ محمدًا لم يجئ إلَّا بالأشياء الشريرة، وغير الإنسانيَّة، مثل الأمر بنشر دينه بحد السيف! فهو قول مبني على الجهل المحض، أو الكذب المحض. فلم يوجد من حارب الشر، ودعا إلى الخير، وفرض كرامة الإنسان، واحترم فطرة الإنسان، مثل مُحَمَّد الَّذي أرسله الله ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ودعوى أنَّه أمر بنشر دينه بحد السيف أكذوبة كبرى، فهذا القرآن بين أيدينا: مائة وأربع عشرة سورة، متضمنة أكثر من ستَّة آلاف آية، فهل فيها آية واحدة، تأمر بنشر الإسلام بالسيف؟! وهذه أحاديث الرسول الصحاح، فهل فيها حديث واحد يأمر بنشر الدين بالسيف؟! بل نصوص القرآن والسُّنَّة كلها تثبت عكس هذه الدعوى. فهذا ما أمر به القرآن: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

والحقيقة أنَّ الإسلام لم ينتشر بالسَّيْف، ولم ينتصر بالسَّيْف، بل انتصر على السيف الَّذي شهر في وجهه من أوَّل يوم. وظل ثلاثة عشر عامًا يتحمَّل الأذى والفتنة في سبيل الله، والمسلمون يطالبون الرسول الكريم: أنْ يأذن في الدفاع عن أنفسهم، وهم يأتونه بين جريح ومشجوج، فيأبى أنْ يأذن لهم. حتَّى نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

QaradawiBooks.com

هنا شرع الإسلام الجهاد دفاعًا عن النفس، ومقاومة للفتنة، والفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل. ولذا قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

والإسلام لا يقبل إيمان من يدخله عن طريق الإكراه، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وما قول البابا فيما جاء في الكتاب المُقَدَّس في سفر التثنية من التوراة: إنَّ البلدة الَّتي يدخلها موسى ومن معه من المدن البعيدة، عليهم أن يقتلوا جميع ذكورها بحد السيف... أمَّا بلاد أرض الميعاد، فالمطلوب دينًا ألا يستبقوا فيها نسمة حية! يعني: الإبادة والاستئصال الَّذي نفذه الأوربيون النَّصارى حينما دخلوا أمريكا مع الهنود الحمر، وحينما دخلوا استراليا مع أهلها الأصليين!

كنَّا نربأ بالبابا أنْ يستدلَّ بهذا الكلام المبتور في سياق حديثه عن الإسلام ونبيّ الإسلام.

وما يمارسه بعضُ المسلمين من العنف، فبعضه مشروع، بإقرار الأديان والشرائع والقوانين والأخلاق، مثل دفاع المقاومة الوطنية ضد الاحتلال في فلسطين أو في لبنان أو في العراق أو في غيرها، وتسمية هذا عنفًا وإرهابًا: ظلم بيِّن، وتحريف للحقائق.

وبعض ذلك أنكرته جماهير المسلمين في كل مكان، مثل أحداث (١١) سبتمبر، ومعظم العنف غير المشروع سببه الأكبر: المظالم الَّتي تقع

QaradawiBooks.com

على المسلمين في كل مكان «من الغربيين»، ويسكت عنها رجال الدين في الغرب، وربما باركها بعضهم.

ويقرر البابا في لقائه الجماهيري: «أنَّ الله في العقيدة الإسلاميَّة مطلق السمو، ومشيئته ليست مرتبطة بأي شيء من مقولاتنا، ولا حتَّى بالعقل!». وأقام مقارنة مع الفكر المسيحي المتشبع بالفلسفة الإغريقية، موضحًا أنَّ «هذا الفكر يرفض عدم العمل بما ينسجم مع العقل». وكل ما هو مخالف للطبيعة الإلٰهيَّة.

ولو كلَّف «البابا» نفسه أو كلَّف أحدًا من أتباعه بالرجوع ـ ولو قليلًا ـ إلى مصدر الإسلام الأوَّل «القرآن» لوجد فيه من عشرات الآيات، بل مئاتها، ما يمجد العقل، ويأمر بالنظر، ويحض على التفكير، ويرفض الظن في مجال العقائد، كما يرفض اتباع الأهواء، وتقليد الآباء والكبراء، حتَّى كتب بعض كبار الكتاب بحق كتابًا بعنوان: «التفكير فريضة إسلاميَّة».

وحسبنا قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ولو رجع إلى أقوال أئمة الإسلام، مثل الأشعري والماتريدي والباقلاني والجويني والغزالي والرازي والآمدي وغيرهم، لوجدهم يقولون: إنَّ العقل أساس النقل، ولولا العقل ما قام النقل، ولا ثبت الوحي، لأنَّ ثبوت النبوة لا يتم إلَّا بالعقل، وثبوت النبوة لشخص معين لا يتم أيضًا إلَّا بالعقل.

QaradawiBooks.com

ولا يقبل المحقِّقون من علماء الإسلام من آمن بالإسلام تقليدًا لآبائه، دون إعمال للعقل، ونظر في الأدلَّة، ولو بالإجمال. كما قال صاحب «الجوهرة»:

إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد[1]

ولو أحببنا أن نقارن بين الديانتين: الإسلام والنَّصرانيَّة، لوجدنا النَّصرانيَّة هي الَّتي لا تعير العقل التفاتًا في عقائدها، وتقول تعليماتها: آمن ثمَّ اعلم. اعتقد وأنت أعمى. أغمض عينيك ثمَّ اتبعني. في حين أنَّ العلم في الإسلام يسبق الإيمان، والإيمان ثمرة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]، وهكذا: ليعلموا، فيؤمنوا، فتخبت قلوبهم.

لقد ألف الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده كتابه: «الإسلام والنَّصرانيَّة مع العلم والمدنيَّة» ليرد به على أحد نصارى الشرق الَّذي زعم أنَّ النَّصرانيَّة تتسع للعلم والمدنيَّة بما لا يتسع له الإسلام. فكان رد الشيخ العلمي الموثق بالمنطق والتاريخ وحقائق الدين والعلم: أنَّ الأصول الَّتي يقوم عليها الإسلام هي الَّتي تثمر الحضارة والمدنيَّة، من الإيمان بالعقل، ورفض السلطة الدِّينيَّة، والجمع بين الدُّنْيا والآخرة إلخ. بخلاف المَسِيحيَّة الَّتي تقوم في أساسها على الخوارق، ولا تؤمن برعاية السنن الَّتي أكدها القرآن، والَّتي يقول أحد فلاسفتها الدينيين «أوغستين»: أومن بهذا، لأنَّه محال، أو غير معقول!

ولو كان الإسلام ينكر العقل أو يهمله، فكيف أقام المسلمون تلك الحضارة الشامخة الَّتي جمعت بين العلم والإيمان، وبين الإبداع المادي

(١) حاشية البيجوري على الجوهرة صـ ٧٦.

QaradawiBooks.com

والسمو الروحي؟ والَّتي ظل العالم يستمد منها أكثر من ثمانية قرون، ومنها أوربا الَّتي اقتبست منها المنهج التجريبي الاستقرائي، بدل المنهج القياسي الأرسطي، كما شهد بذلك مؤرخو العلم من أمثال غوستاف لوبون، وبير يفولت، وجورج سارطون وغيرهم.

وعن طريق الحضارة الإسلاميَّة، عرفت أوربا فلسفة أرسطو مشروحة على يد فيلسوف وفقيه مسلم هو العلَّامة ابن رشد. ولولاه ما عرف الأوربيون أرسطو!

وقول البابا: إن مشيئة الله في الإسلام مطلقة لا يحدها شيء: صحيح في الجملة، ولكن أجمع علماء الإسلام على أن مشيئة الله تعالى مرتبطة بحكمته لا تنفصل عنها، فلا يشاء أمرًا مخالفًا للحكمة، فإنَّ من أسمائه الحسنى الَّتي تكرَّرت في القرآن: الحكيم. فهو حكيم فيما خلق، وحكيم فيما شرع، لا يخلق شيئًا باطلًا، ولا يشرع شيئًا اعتباطًا.

والله تعالى لا يفعل إلَّا ما فيه الخير والصلاح لخلقه، كما قال نبي الإسلام في مناجاته لربه: «**والخيرُ كُلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك**»[1].

بل إن طائفة المعتزلة من مُتَكَلِّمي المسلمين يرون أنَّ فعل الصلاح والأصلح للخلق: واجب على الله تعالى.

ليست هذه هي المرَّة الأولى الَّتي يقف البابا الحالي من الإسلام والمسلمين موقفًا سلبيًّا، يظهر فيه الإهمال أو التوجس، أو ما هو أكثر.

ففي أوَّل قداس أشرف عليه بعد انتخابه أواخر إبريل ٢٠٠٥م لم يذكر المسلمين بكلمة على حين خصَّ «الإخوة الأعزاء ـ على حد قوله ـ من الشعب اليهودي بكلمات تفيض مودة وإعزازًا».

(١) سبق تخريجه صـ٥٨.

QaradawiBooks.com

وفي مدينة «كولونيا» الألمانيَّة آخر شهر أغسطس أثناء الأيام العالميَّة للشباب: التقى بممثلين عن الجالية المسلمة في أسقفية المدينة، فأعرب عن بالغ انشغاله بتفشِّي الإرهاب، وأكد في هذا اللقاء ضرورة «نزع المسلمين ما في قلوبهم من حقد، ومواجهة كل مظاهر التعصب، وما يمكن أن يصدر منهم من عنف»!

وهذه النبرة التوبيخية، كان لها وقع سيئ في نفوس المسلمين، لما فيها من رؤية ضيقة ومن تصور تبسيطي لمنابع الإرهاب وأسبابه.

كما أنَّ استقباله للكاتبة الإيطالية المقيمة في الولايات المتحدة «أوريانا فالاتشي»، والَّتي تكتب كتبًا ومقالات نارية تؤلب على الإسلام والمسلمين. والَّتي لا ترى فرقًا بين إسلام متطرف وإسلام معتدل، فالإسلام كله متطرف، والتناقض بين المَسِيحيَّة والإسلام: جوهري!

كانت هذه مواقف تعد سلبية بالنسبة للمسلمين، أمَّا اليوم فقد أصبح الأمر يتعلق بالإسلام ذاته، ونحن المسلمين نعتبر النَّصارى أقرب مودة للمسلمين، والنبي مُحَمَّد يقول: «**أنا أولى النَّاس بعيسى ابن مريم**»[1].

ولمريم عليها السلام سورة في القرآن، ولأسرة المسيح سورة في القرآن «سورة آل عمران»، وللمسيح وكتابه في القرآن مكان معروف. ونحن لا نريد أنْ نصعِّد الموقف، ولكن نريد تفسيرًا لما يحدث، وما المقصود من هذا كله؟!

لقد كنا نود من البابا أنْ يدعو إلى حوار إيجابي بين الأديان، وحوار حقيقي بين الحضارات، بدل الصدام والصراع، وقد استجبنا من قبل

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

للدعوة الموجهة من جمعية سانت جديو في روما إلى الحوار الإسلامي المسيحي. وشهدنا دورة للحوار مع أحبار الكنيسة في روما، وفي برشلونة، فيما سمي «قمة إسلاميَّة مَسِيحيَّة»، وشاركنا في مؤتمرات للحوار الإسلامي المسيحي في الدوحة وفي القاهرة. فهل يريد الحبر الأعظم أن نغلق أبواب الحوار، ونستعدُّ للصراع في حرب أو حروب صلِيبيَّة جديدة؟

وقد بدأها بوش، وأعلنها صريحة باسم اليمين المسيحي. ونحن ندعو إلى السلم، لأنَّ ديننا يأمرنا بذلك، ولكننا إذا فرضت علينا الحرب خضناها كارهين، نتربص فيها إحدى الحسنيين، كما قال قرآننا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكما قال نبيُّنا: «**لا تتمنَّوْا لقاءَ العدوِّ، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلالِ السُّيوف**»[1].

فنحن ندعو إلى التسامح لا إلى التعصُّب، وإلى الرفق لا إلى العنف، وإلى الحوار لا إلى الصدام، وإلى السلام لا إلى الحرب. ولكنَّا لا نقبل أن يهاجم أحد عقيدتنا ولا شريعتنا ولا قيمنا، ولا أنْ يمس نبيَّنا محمدًا بكلمة سوء. وإلا فقد أذن الله لنا أن ندافع عن أنفسنا. فإنَّ الله لا يحب الظالمين.

رئيس الاتِّحاد العالمي لعلماء المسلمين

يوسف القرضاوي

(١) سبق تخريجه صـ٩١.

QaradawiBooks.com

(ملحق ٢)

بيان آخر للاتحاد بشأن موقف بابا الفاتيكان من الإسلام والرسول ﷺ

الحمد لله، والصَّلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فقد تابع الاتِّحاد العالمي لعلماء المسلمين متابعة مستمرة للمواقف الَّتي صدرت عن بابا الفاتيكان منذ ألقى محاضرته في إحدى الجامعات الألمانيَّة بتاريخ ١٩ من شعبان ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦/٩/١٢م.

ولاحظ الاتِّحاد أنَّه على الرغم من إتاحته الفرصة للبابا لحذف الكلام الباطل المسيء للمسلمين ولدينهم، ولكتابهم، ولنبيهم ﷺ، وإعلان الاتِّحاد على لسان رئيسه فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي وأمينه العام الأستاذ الدكتور مُحَمَّد سليم العوا عدة مرَّات عدم الحاجة إلى اعتذار البابا، لأنَّ الاعتذار بعد الإساءة لا يقدِّم ولا يؤخر، والاكتفاء بحذف الكلام المذكور من النص الرسمي للمحاضرة، فإنَّ هذه الدعوة لم تجد أذنًا صاغية.

واكتفى البابا في كل مرَّة تكلم فيها بالإشارة إلى أسفه لسوء فهم كلامه أي إنَّه يتهم المسلمين، الَّذين غضبوا لدينهم ولكتابهم ولنبيهم ﷺ، بعدم الفهم. وكرر غير مرَّة أنَّ النص المنقول عن إمبراطور بيزنطي أرثوذكسي «يعتبره البابا غير مسيحي» لا يعبر عن وجهة نظره، مع أنَّ المحاضرة كلها مبنية من أولها إلى آخرها على كلام هذا الإمبراطور؛

QaradawiBooks.com

الأمر الَّذي يقطع بـأنَّ البابا يقصد تبنِّي ما نقله عنـه والبناء عليه وتأكيد معانيه الفاسدة في أذهان سامعيه وهم العالم الكاثوليكي كله.

وقد لاحظ الاتِّحاد أنَّ جميـع أحاديث البابا الَّتـي تناولت موضوع محاضرته وما جاء فيها من إسـاءة للإسلام أشار فيها إلى الأديان، وأشار إلى المسلمين، ولم يذكر ولو مرَّة واحدة دين الإسلام. وإذا كان الاتِّحاد يفهم موقف الكاثوليكيَّة من سـائر الأديان والمعتقدات فإنه لا يمكن أنْ يتقبل إخراج الإسلام وحده من زمرة ديانات العالم الكبرى «التي لا تؤمن الكاثوليكيَّة بأنَّها أديـان» ثمَّ ذكر هذه الأديان على سـبيل الجمع وذكر المسلمين كجماعات وشعوب لا كأصحاب دين ولو أنكره الفاتيكان.

وقد فوجئ الاتِّحاد بأنَّ البابا، عندما التقى أمس الإثنين ٢ من رمضان ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦/٩/٢٥م بسفراء الدول الإسلاميَّة المعتمدين لدى الفاتيكان، لم يذكر محاضرته بكلمة، واكتفى بالدعوة إلـى الحوار باعتباره ـ كما يزعم ـ ضرورة للمستقبل.

والاتحاد يعلن، في ضوء ما سـلف كله، أنَّ الحوار الَّذي يدعو إليه البابا غير ممكن ولا معقول، إذ إنَّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبـوت: ٤٦]. ونحن ظُلِمنا على لسان البابا ظلمًا شديدًا لا يرفعه ما قاله في لقائه مع السفراء.

بل إنَّ القرآن الكريم ينهى المسـلمين عن الجلوس مع من يسـخر من كتابهـم فيقـول: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ [النساء: ١٤٠].

لذلك قرَّر الاتِّحاد العالمي لعلماء المسـلمين عدم إجراء أي اتصال من أي نوع مع الفاتيكان، أو المؤسَّسـات الممثلة له، أو مندوبيه لدى

QaradawiBooks.com

الدول العربيَّة والإسلاميَّة، وفي سائر أنحاء العالم، إلى أنْ يصدر من البابا موقف جديد يجعل احتمال الحوار البناء المجدي قائمًا، والاتحاد يعلن هذا القرار للعالم الإسلامي داعيًا المسؤولين الدينيين والسياسيين إلى اتخاذ الموقف الَّذي يمليه عليهم دينهم وضميرهم وكرامة أمتهم واعتزازهم بالانتساب إلى رسول الله ﷺ واتباعه. وهذه المقاطعة الثقافية هي أقل ما يجب على المسلمين عمله إزاء الإصرار المستمر على عدم الرجوع إلى الحقِّ، والاستكبار الواضح عن حذف العبارات الباطلة المسيئة للمسلمين من محاضرة البابا.

ويهم الاتِّحاد أنْ يذكر البابا، والمَسِيحيِّين كافة، بما وصف به القرآن الكريم أحبار النَّصارى وعوامهم في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

إنَّ أقلَّ ما يتوقعه المسلمون من المَسِيحيِّين هو مثل هذا الإنصاف الَّذي بغيره لا يمكن أنْ تقوم علاقة صحيحة بين الفريقين، ولا أنْ يؤدي أي حوار إلى ثمرة صالحة.

والحمد لله ربِّ العالَمِين.

الأمين العام للاتحاد	رئيس الاتِّحاد العالمي لعلماء المسلمين
أ.د. مُحَمَّد سليم العوّا	أ.د. يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

(ملحق ٣)
صفحات من مذابح النَّصارى لليهود

إنَّ الَّذين يتهمون الإسلام بأنَّه «دين السيف» وأنَّه قهر النَّاس بالسَّيْف، هم أوَّل النَّاس وأكثر النَّاس استعمالًا للسيف، بموجب وبغير موجب، ولا سيَّما فيما بين بعضهم وبعض.

وأكتفي بأن أذكر هنا ما سجَّله العلَّامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه القيم «إظهار الحقّ» الَّذي ردَّ فيه على المبشرين البروتستانت دعاواهم الكاذبة على الإسلام، ومن هذه الدعاوى: أنَّ الإسلام انتشر بالسَّيْف. وقد بيَّن الشيخ بالبراهين: أنَّ هذا الادعاء غير صحيح كما أشار إليه في الأمر السابع من مقدمة الكتاب، كما بين أن أفعالهم تكذب أقوالهم، وأنَّهم أكثر النَّاس استعمالًا للسيف كما أنَّ أسلافهم من أهل ملتهم إذا تسلطوا تسلطًا تامًّا، اجتهدوا في إبادة المخالفين. قال: وأنا أنقل بعض الحالات من كتبهم ورسائلهم، فأنقل حالهم بالنسبة إلى «اليهود» من كتاب «كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل» الَّذي عرفته في بيان الأمر الثاني، فأقول:

قال صاحبه في الصفحة (٢٧): «القسطنطين الأعظم ـ الَّذي كان قبل الهجرة بثلثمائة سنة تقريبًا ـ أمر بقطع آذان اليهود، وإجلائهم إلى أقاليم مختلفة، ثمَّ أمر ملك الملوك الرومي في القرن الخامس من القرون

QaradawiBooks.com

المَسِيحيَّة، بإخراجهم من البلدة السكندرية الَّتي كانت مأمنهم من مدة، وكانوا يجيئــون إليها مــن كل جانب، فيســتريحون فيهــا. وأمر بهدم كنائسهم، ومنع عبادتهم، وعدم قبول شــهادتهم، وعدم نفاذ الوصية إنْ أوصى أحد منهم لأحد في ماله، ولما ظهرت منهم مقاومة، بسبب هذه الأحكام، نهب جميع أموالهم، وقتل كثيرًا منهم، وســفك الدماء بظلم ارتعد له جميع يهود هذا الإقليم».

ثم قال في الصفحة (٢٨): «إن يهود البلد «انطيوح» لما أســروا بعد ما صاروا مغلوبين، قطع أعضاء البعــض، وقتل البعض، وأجلي الباقين منهم كلهم، وظلم ملــك الملوك في جميع مملكته هؤلاء المشــاركين بأنواع الظلم، ثمَّ أجلاهم من مملكته آخرًا.

وهيج ولاة الممالك الأخرى علــى أن يعاملوا اليهود هذه المعاملة، فكان حالهم أنَّهم تحمَّلوا الظلم من آســيا إلى أقصى حد أوربا، ثمَّ بعد مدة قليلة كلفوا في مملكة إسبانيا لقبول شــرط من الشروط الثلاثة: أنْ يقبلوا الملة المَسِــيحيَّة، فإنْ أبوا عن قبولها يكونوا محبوسين، وإنْ أبوا عن كليهما يجلوا من أوطانهم.

وصار مثل هذه المعاملة معهم في ديار فرنسا. فهؤلاء المساكين كانوا ينتقلون من إقليم إلى إقليم، ولا يحصل لهم موضع القرار، ولم يحصل لهم الأمن في آســيا أيضًا، بل قتلوا في كثير من الأوقات، كما قتلوا في ممالك الفرنج».

ثم قال في الصفحة (٢٩): «إنَّ أهل ملــة الكاثوليك كانوا يظلمونهم باعتقاد أنَّهم كفار، وعظماء هذه الملة عقدوا مجلسًــا للمشورة، وأجروا عليهم عدة أحكام:

QaradawiBooks.com

الأول: من حمى يهوديًّا ضد مسيحي يكون ذا خطأ ويخرج عن الملة.

والثاني: أنَّه لا يعطى يهودي منصبًا في دولة من الدول.

والثالث: لو كان مسيحي عبده فهو حر.

والرابع: لا يأكل أحد مع اليهودي، ولا يعامله.

والخامس: أن ينزع الأولاد منهم ويربون في الملة المَسِيحيَّة... وهكذا كانت أحكام أخر».

أقول: لا شك أنَّ الحكم الخامس أشد أنواع الإكراه.

ثم قال: «كانت عادة أهل البلدة ثولوس من إقليم فرنسا: أنَّهم كانوا يلطمون وجوه اليهود في عيد الفصح! وكان رسم البلدة بزيرس: أنَّ أهلها من أوَّل يوم الأحد من أيام العيد إلى يوم العيد، كانوا يرمون اليهود بالحجارة، وكان يكثر القتل أيضًا في هذا الرمي، وكان حاكم البلدة المسيحي المذهب يحرض أهلها على هذا الفعل».

ثم قال في الصفحة (٣٠ ـ ٣١): «دبَّر سلاطين فرنسا في حقِّ اليهود أمرًا، وهو أنَّهم كانوا يتركون اليهود إلى أنْ يصيروا متمولين بالكسب والتجارة، ثمَّ يسلبون أموالهم، وبلغ هذا الظلم لأجل الطمع غايته.

ثم لما صار «فيليب أوغسطس» سلطانًا في فرنسا، أخذ أولًا الخمس من ديون اليهود الَّتي كانت على المَسِيحيِّين، وأبرأ من الباقي ذمَّة المَسِيحيِّين، وما أعطى اليهود حبَّة، ثمَّ أجلى اليهود كلهم من مملكته، ثمَّ جلس على سرير السلطنة «سانت لويس» وهو يطلب اليهود مرتين في مملكته. وأجلاهم مرتين، ثمَّ أجلى «جرلس السادس» اليهود من مملكة فرنسا.

QaradawiBooks.com

وقد ثبت من التواريخ: أنَّ اليهود أجلوا من مملكة فرنسا سبع مرَّات، وعدد اليهود الَّذين أخرجوا من مملكة إسبانيا ـ لو فرض في جانب القلة ـ لا يكون أقل من ألف وسبعين ألف بيت!

وفي مملكة «النمسا» قتل كثير منهم، ونهب كثير منهم، ونجا منهم قليل، وهم الَّذين تنصَّروا، ومات كثير منهم بأن سَدُّوا أولًا أبوابهم، ثمَّ أهلكوا أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وأموالهم، إما بالإغراق في البحر، أو بالإحراق بالنار، وقتل غير المحصورين منهم في الجهاد المقدس.

وكان الإنكليز اتفقوا على أنْ يظلموا اليهود، فلما حصل اليأس العظيم ليهود البلدة «يرك» بسبب الظلم، قتل بعضهم بعضا، فقتل ألف وخمسمائة من الرجال والنساء والأطفال، وصاروا أذلاء في هذه المملكة بحيث إذا بغى الأمراء على السلطان، قتلوا سبعمائة يهودي، ونهبوا أموالهم، لأجل أن يظهروا شوكتهم على النَّاس، وسلب «رجاردوجان» و«هنري الثالث» من سلاطين إنكلترا مرارًا: أموال اليهود ظلمًا لا سيَّما «هنري الثالث»، فإنه كانت عادته أنَّه كان ينهب اليهود بكل طريق على وجه الظلم، وعدم الرحمة. وقد جعل أغنياءهم الكبار فقراء وظلمهم، بحيث رضوا بالجلاء، واستجازوا أن يخرجوا من مملكته، لكنَّه ما قبل هذا الأمر منهم أيضًا. ولما جلس «إدوارد الأول» على سرير السلطنة، ختم الأمر بأن نهب أموالهم كلها، ثمَّ أجلاهم من مملكته، فأجلى أكثر من خمسة عشر ألف يهودي في غاية العسر».

ثم قال في الصفحة (٣٢): «نقل مسافر اسمه «سوتي»: أنَّه كان حال قوم برتكال (البرتغال) قبل خمسين عامًا: أنَّهم كانوا يأخذون اليهودي ويحرقونه بالنار، ويجتمع رجالهم ونساؤهم يوم إحراقه، كاجتماع يوم

QaradawiBooks.com

العيد، وكانوا يفرحون بذلك. وكانت النساء يصحن (أي يزغردن) وقت إحراقه فرحًا»!

ثم قال في الصفحة (٣٣): «إنَّ البابا الَّذي هو عظيم فرقة الكاثوليك قرر عدة قوانين شديدة في حق اليهود». انتهى كلام «كشف الآثار في قصص أنبياء بني إسرائيل».

وقال صاحب «سير المتقدمين»: «إنَّ السلطان السادس (قسطنطين الأول)، أمر بمشورة أمرائه في سنة (٣٧٩م) أن يتنصَّر كل من هو في السلطنة الرومية ويقتل من لم يتنصَّر» انتهى. قال: وأي إكراه أكثر من هذا؟!

مذبحة الصليبيين في القدس:

«ولطامس نيوتن» تفسير للأخبار عن الحوادث المستقلة المندرجة في الكتب المقدسة. وطبع هذا التفسير سنة ١٨٠٣م في لندن. ففي الصفحة (٦٥) من المجلد الثاني في بيان تسلط أهل التثليث على أورشليم: «هكذا فتحوا أورشليم (القدس) في الخامس عشر من شهر تموز الرومي سنة (١٠٩٩م) بعدما حاصروا خمسة أسابيع، وقتلوا غير المَسِيحيِّين، فقتلوا أكثر من سبعين ألفًا من المسلمين، وجمعوا اليهود وأحرقوهم، ووجدوا في المساجد غنائم عظيمة» انتهى.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

(ملحق ٤)
بعض ما فعل الكاثوليك بالبروتستانت

قال: وإذا عرفت حال ظلمهم في حق اليهود خصوصًا، وفي حق رعية السلطنة عمومًا، وما فعلوا عند تسلُّطهم على أورشليم، فالآن أذكر نبذًا ممَّا فعل الكاثوليك بالنسبة إلى غيرهم من المَسِيحيِّين، وأنقل هذه الحالات عن كتاب «الثلاث عشرة رسالة» الَّذي طبع في بيروت سنة ١٨٤٩ من الميلاد باللسان العربي، فأقول:

قال في الصفحة (١٥، ١٦): «أمَّا الكنيسة الرومانية، فقد استعملت مرَّات كثيرة الاضطهادات والطرد المزعج ضد البروتستانت، أي الشهود أو بالحري الشهداء، وذلك في ممالك أوربا. ويظن أنَّها أحرقت في النار أقل ما يكون: مائتين وثلاثين ألفًا من الَّذين آمنوا بيسوع دون البابا، واتخذوا الكتب المقدسة وحدها هدى وإرشادًا لإيمانهم وأعمالهم، وقد قتلت أيضًا منهم ألوفًا بحد السيف والحبوس والكلبتين، وهي آلة لتخليع المفاصل بالجذب، وأفظع العذابات المتنوعة. ففي فرنسا قتل في يوم واحد ثلاثون ألف رجل، وذلك في اليوم الملقب بيوم ماريرثو لماوس، وعلى هذا الأسلوب أذيالها مختضبة بدماء القديسين» انتهى كلامه بلفظه.

وفي الصفحة (٣٣٨) في الرسالة الثانية عشرة من الكتاب المذكور: «يوجد قانون وضع في المجمع الملتئم في توليدو في إسبانيا، يقول: إننا

QaradawiBooks.com

نضع قانونًا: أنَّ كل من يأتي إلى هــذه المملكة فيما بعد، لا نأذن له أنْ يصعد إلى الكرســي إن لم يحلف أولًا: أنَّه لا يترك أحدًا غير كاثوليكي يعيش في مملكته، وإن كان بعد ما أخذ الحكم يخالف هذا العهد فليكن محرومًا، قدام الإلٰه السرمدي، وليصر كالحطب للنار الأبدية». «مجموع المجامع من كارتر» أوجه (٤٠٤).

«والمجمع اللاتراني يقول: إنَّ جميع الملوك والولاة وأرباب السلطنة فليحلفــوا: أنَّهم بكل جهدهــم وقلوبهم يســتأصلون جميــع رعاياهم المحكوم عليهم من رؤســاء الكنيســة بأنَّهم هراطقة، ولا يتركون أحدًا منهم في نواحيهم، ومن كانوا لا يحفظون هذه اليمين، فشعبهم في حِلٍّ مــن الطاعة لهــم» رأس (٣) «وهذا القانــون قد ثبت أيضًــا في مجمع قسطنطينية» جلسة (٤٥).

«ومن رســم البابا مرتينوس الخامس» «وفي اليمين الَّتي حلفت بها الأساقفة تحت رياسة البابا بولينوس الثالث سنة ١٥٥١م يوجد هذا الكلام: أنَّ الهراطقة وأهل الانشقاق والعصاة على ســيدنا البابا وخلفائه، هؤلاء بكل قوتي أطردهم، أبيدهم».

والمجمع اللاتراني ومجمع قســطنطينية يقولون: «إنَّ الَّذي يمســك الهراطقة له إذن وســلطة أنْ يأخذ منهم كل ما لهم ويستعمله لنفسه من غير مانع» مجمع لاتراني (٤) مجلد (٢) فصل (١) وجه (١٥٢)، ومجمع قسطنطينية جلسة (٤٥) مجلد (٧) «والبابا اينوشنيسوس الثالث يقول: إنَّ هذا القصاص على الهرطقة نحن نأمر به كل الملوك والحكام، ونلزمهم إياه تحت القصاصات الكنائسية» رسم (٧) كتاب (٥).

وفي سنة ١٧٢٤م وضع الملك لويس الحادي عشر ثمانية عشر قانونًا:

QaradawiBooks.com

أولهـا: أنَّنا نأمر أنَّ الديانـة الكاثوليكيَّة وحدها، تكـون مأذونة في مملكتنا، وأمَّا الَّذين يتمسكون بديانة أخرى فليذهبوا إلى الاعتقال طول حياتهم، والنساء فلتقطع شعورهن ويحبسن إلى الموت!

وثانيها: أنَّنا نأمر أنَّ جميع الواعظيـن الَّذين جمعوا جماعات على غير العقائـد الكاثوليكيَّة، والذين علموا أو مارسـوا عبادة مخالفة لها يعاقبون بالموت.

وفي مخاطبة الأساقفة في إسبانيا للملك سنة ١٧٦٥م يقولون له: أعط الرسـوم كل قوتها، والديانة كل مجدها، لكن تسـبب هـذه المقالة منا تجديد قوانين سنة ١٧٢٤م المذكورة «وكان من جملة رسوم إنكلترا تحت رياسـة البابا: أن كل من يقول إنَّه لا يجوز أنْ يسجد للأيقونات: يحبس في السجن الشديد، حتَّى يحلف أنَّه يسـجد لها، والأسقف أو القاضي الكنائسي له سـلطان أنْ يحضر إليه، أو يحبس كل من يقع عليه الشبهة: أنَّه هرطيقي، والهرطيقـي العنيد فليحرق بالنار قدام الشـعب، وجميع الحكام فليحلفوا أنَّهم يعينون هذا القاضي على استئصال الهراطقة الَّذين عندما تظهر هرطقتهم تسـلب أموالهم ويسلمون إليه، وتمحى خطاياهم بلهيب النار». كوك فرائض عدد (٣) وجه (٤٠ ـ ٤١) وأيضًا عدد (٤) وجه (١٥) «وبارونيـوس يقول عن الملك كارلوس الخامـس: كان يظن برأيه الباطل: أنَّه يستأصل الهراطقة ليس بالسَّـيْف، بل بالكلام، وفي فهرس الكتاب المُقَدَّس المطبوع في رومية باللاتيني والعربي تحت حرف الهاء يوجد هذا التعليم: أنَّ الهراطقة ينبغي لنا أن نهلكهم، ويورد الإثبات على ذلك: أنَّ الملك ياهو قتل الكهنة الكذبـة، وإيليا ذبح كهنة باعل، وغير ذلك. فإذن هكذا ينبغي لأولاد الكنيسة أنْ يهلكوا الهراطقة».

QaradawiBooks.com

ثم في الصفحة (٣٤٧ ـ ٣٤٨): «والمؤرخ منتوان المتقدم في رياسة الكرمليين مع غيره من المؤرخين، يخبرنا عن كاروز بالإنجيل معتبر، يقال له «ثوما» من رودن، أحرقه البابا بالنار، لأنَّه كرز ضد فسادات الكنسية الرومانية، والمؤرخون يدعونه قديسًا وشهيدًا حقيقيًّا للمسيح».

وفي الصفحة (٣٥٠ إلى ٣٥٥): «في سنة ١١٩٤م أمر الديفونسو ملك أراغون في إسبانيا بنفي الواضيين من بلاده، لأنَّهم هراطقة... وفي سنة ١٢٠٦م رغمًا عن الأمير رايمون والي مدينة ثولوس، أرسل البابا قضاة بيت التفتيش إلى تلك المدينة، لأنَّ الأمير المذكور كان قد أبى أنْ ينفي هؤلاء الواضيين، ثمَّ بعد قليل أرسل ملك فرنسا بطلب مِن البابا إلى تلك المدينة ونواحيها عسكرًا، عدده ثلثمائة ألف، فحاصر الأمير رايمون في مدينته لأجل المحاماة عن نفسه، ولكي يدفع القوَّة بالقوة، فذبح في ذلك القتال ألف ألف (مليون)، وانكسر أهل رايمون، وأحاط بهم كل صنف من الإهانات والعذابات، وكان البابا في حركة هذه الحروب يقول لقومه: إننا نعظكم ونحتم عليكم أن تجتهدوا في ملاشاة هذه الهرطقة الخبيثة: هرطقة الألبجيين أي الواضيين، وتطردوهم بيد قوية أشد ممَّا يكون ضد الساراجين أي المسلمين...

وفي سنة ١٤٠٠م في آخر شهر كانون الأول، قام أهل البابا بغتة على الواضيين في أوديابيت مونت بلاد ملك سردينيا، فهربوا من وجوههم بلا قتال، ولكن قتل كثيرون بالسَّيْف، وكثيرون ماتوا بالثلج.

ثم إنَّ البابا بعد ذلك بسبع وثمانين سنة، كلف البرتوس ارشيديا كونوس في مدينة كريمونا: أنْ يحارب الواضيين في النواحي القبلية من فرنسا، وفي أوديابيت مونتن حيث بقي البعض منهم من الَّذين رجعوا

QaradawiBooks.com

بعد الحرب في سنة ١٤٠٠م، وهذا الرجل المذكور تقدم حالًا ومعه ثمانية عشـــر ألف محارب، وأقام تلك الحرب الَّتي استمرت نحو ثلاثين سنة على المَسِـــيحيِّين الَّذين قالوا: نحن في كل وقت نكـــرم الملك ونؤدي الجزية، ولكن أرضنا وديانتنا الَّتي ورثناها من الله ومن آبائنا لا نريد أن نتركها، وفي كالابريا من بلاد إيطاليا ســـنة ١٥٦٠م قتل ألوف ألوف، من البروتستنتيين، بعضهم قتلهم العسكر، وبعضهم محكمة التفتيش.

قال أحد المعلمين الرومانيين: إنَّني أرتعد كلَّمـــا أفتكر بذلك الجلاد، والخنجر الدموي بين أســـنانه، والمنديل يقطر دمًا بيده، وهو متلطخ بيديه إلى الأكارع، يسحب واحدًا بعد واحد من السجن، كما يفتك الجزار بالغنم!

وفي سنة ١٦٠١م نفى دوك السافوي خمسمائة عائلة من الواضيين...

وأيضًا ســـنة ١٦٥٥م وســـنة ١٦٧٦م تجددت الاضطهـــادات عليهم في أوديابيد مونت، لأنَّ الملك لويس الرابع عشر بإشارة من البابا تقدم إليهم بجيشه، وهم في بيوتهم بغاية الطمأنينة، فذبح العسكر خلقًا كثيرًا منهم، ووضعوا في الحبس أكثر من عشـــرة آلاف، فمات كثير منهم من الزحام والجوع، والذين ســـلموا أخرجوهم لكي ينزحوا مـــن تلك البلاد، وكان ذلك اليوم شـــديد البرد والأرض مغطاة بالثلج. والجليد، فكان كثير من الأمهات وأولادهن في أحضانهن موتى على جانب الطريق من البرد...

وكارلوس الخامس سنة ١٥٢١م، أخرج أمرًا في طرد البروتستنتيين في بلاد فلامنك عن رأي البابا، وبسبب ذلك قتل خمسمائة ألف نفر!

وبعد كارلوس تولى ابنه فيلبس، ولما ذهب إلى إسبانيا سنة ١٥٥٩م، استخلف الأمير ألفا على طرد البروتســـتنتيين، والمذكور في أشهر قليلة قتل على يد الجلاد الملوكي الشرعي ثمانية عشـــر ألفًا، وبعد ذلك كان

QaradawiBooks.com

يفتخر بأنَّه قتل في كل المملكة ستَّة وثلاثين ألفًا! والقتيل الَّذي يذكره المعلم كين في عيد مار برثولماوس، كان في آب سنة ١٥٧٢م في وقت السلامة الكاملة، وكان الملك ملك فرنسا قد وعد بأخته لأمير نافار، وهو من علماء البروتستنتيين وأشرافهم، ثمَّ اجتمع هو وأصدقاء أعيان كنيستهم في باريس لأجل استتمام الوعد بالزواج، ولما ضربت النواقيس لأجل الصَّلاة الصباحية، قاموا بغتة حسب اتفاقهم السابق على الأمير وأصحابه، وعلى جميع البروتستنتيين في باريس، فذبحوا منهم عشرة آلاف شخص!

وهكذا جرى أيضًا في روين وليون وأكثر المدن في تلك البلاد، حتَّى قال البعض من المؤرخين: إنَّه قتل نحو ستين ألفًا.

واستمرَّ هذا الاضطهاد مدة ثلاثين سنة، لأنَّ البروتستانتيين أمسكوا سلاحهم لكي يدفعوا القوَّة بالقوة، ومات في هذه الحرب منهم تسعمائة ألف.

ولما سمع في رومية فعل ملك فرنسا في عيد مار برثولماوس، أطلقوا المدافع من الأبراج، وذهب البابا مع الكردياليين ليرتل مزمور الشكر في كنيسة الرومانية بهذا العمل، فلما جلس الملك هنري الرابع على كرسي فرنسا قطع هذا الاضطهاد سنة ١٥٩٣م. لكن يظن إنَّه قتل لأجل عدم تسليمه بالاغتصاب في أمر الدين.

ثم أنَّه في سنة ١٦٧٥م تجدد الاضطهاد وبعد ما قتل خلق كثير يقول المؤرخون: إن خمسين ألفًا اضطروا أن يتركوا بلادهم لكي ينجوا من الموت» انتهى كلامه، ونقلت عبارة هذا الكتاب بألفاظها من الرسالة الثانية عشرة.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

(ملحق ٥)
بعض ما فعل البروتستانت انتقامًا من الكاثوليك

وإذا عرفت حال ظلم فرقة الكاثوليك، فاعلم أن حال ظلم فرقة بروتستانت قريب منه، وأنقل هذا الحال عن كتاب «مرآة الصدق» الَّذي ترجمه القسيس طامس انكلس من علماء الكاثوليك، من اللسان الإنكليزي إلى أردو، وطبع سنة ١٨٥١ من الميلاد. ويوجد هذا الكتاب عند أهل هذه الفرقة في الهند كثيرًا.

وفي الصفحة (٤١، ٤٢): «سلب بروتستنت في ابتداء أمرهم ستمائة وخمسة وأربعين رباطًا، وتسعين مدرسة، وألفين وثلاثمائة وستة وسبعين كنيسة، ومائة وعشر مارستانات من أملاكها، فباعوها بثمن بخس وتقاسمها الأمراء فيما بينهم، وأخرجوا ألوفًا من المساكين المفلوكين عرايا من هذه الأمكنة».

ثم قال في الصفحة (٤٥): «امتد طمعهم أنَّهم ما تركوا الأموات أيضًا، بل آذوا أجسادهم في نوم العدم وسلبوا أكفانهم».

ثم قال في الصفحة (٤٨، ٤٩): «وضاعت في هذه الغنائم كُتُبْخانات ذكرها جيء بيل متحسرًا بهذه الألفاظ: إنهم سلبوا كتبًا واستعملوا أوراقها في الشواء، وفي تطهير الشمعدانات والنعال، وباعوا بعض الكتب على العطارين وباعة الصابون، وباعوا كثيرًا منها ما وراء البحر

QaradawiBooks.com

على أيـــدي المجلديـــن، وما كانت هـــذه الكتب مائة أو خمســـين، بل المراكب كانت مملؤة منهـــا، وأضاعوها بحيث تعجب الأقوام الأجنبية، وإنِّي أعلم تاجرًا اشـــترى كُتُبْخانتين كل منهما بعشرين ربية. وبعد هذه المظالم ما تركوا من خزائن الكنائس إلَّا جدرانًا عريانة، ثمَّ ظنوا أنفسهم من أهل الوقار، وملؤوا الكنائس من أناس من أهل ملتهم».

ثم قال في الصفحة الثانية والخمسين إلى الصفحة السادسة والخمسين: «فلنلاحظ الآن أفعال الجور الَّتي فعلها بروتستنت في حق فرقة الكاثوليك إلى هذا الحين، أنَّهم قرروا أكثر من مائة قانون كلها خلاف العدل والرحمة، لأجل الظلم، ونحن نذكر عدة من هذه القوانين الجورية:

١ ـ لا يرث كاثوليكي تركة أبويه.

٢ ـ لا يشتري واحد منهم أرضًا بعد ما يجاوز عمره ثماني عشرة سنة إلَّا أنْ يصير بروتستنت.

٣ ـ لا يكون لهم مكتب.

٤ ـ لا يشتغل أحد منهم بالتعليم، ومن خالف هذا الحكم يحبس دائمًا.

٥ ـ من كان من هذه الملة يؤدي ضعف الخراج.

٦ ـ إن صلى أحد من قساوسهم فعليه أداء ثلاثمائة وثلاثين ربية من ماله، وإن صلى أحد منهم ولا يكون قسيسًـــا فعليه أداء ســـبعمائة ربية ويسجن سنة.

٧ ـ إن أرسل أحد منهم ولده خارج إنكلترا للتعليم، يقتل هو وولده ويسلب أمواله ومواشيه كلها.

٨ ـ لا يعطى لهم منصب في الدولة.

QaradawiBooks.com

٩ ـ من لم يحضر منهم يوم الأحد أو العيد في كنيسة بروتستنت، تؤخذ منه ألف ربية مصادرة.

١٠ ـ من ذهب منهم بعيدًا من لندن مسافة خمسة أميال، يؤخذ منه ألف ربية مصادرة.

١١ ـ لا يسمع استغاثة أحد منهم عند الحكام بحسب القانون.

١٢ ـ ما كان أحد منهم يسافر أكثر من خمسة أميال، مخافة أنْ ينهب ماله ومتاعه، وكذا ما كان أحد منهم يقدر على الاستغاثة في أمر عند الحكام، مخافة أن يؤخذ منه ألف ربية مصادرة.

١٣ ـ لا تنفذ أنكحتهم ولا تجهيز موتاهم ولا تكفين الموتى ولا تعميد أولادهم إلَّا إذا كانت هذه الأمور على طريقة كنيسة إنكلترا.

١٤ ـ إن تزوجت إحدى نساء هذه الملة، تأخذ الدولة من جهازها ثلثين، ولا ترث من تركة زوجها، ولا يوصي زوجها لها من تركته بشيء، ونساؤهم كن يحبسن إلى أنْ يعطي أزواجهن عشر ربيات في كل شهر أو يعطوا ثلث أراضيهم إلى الدولة.

١٥ ـ ثمَّ صدر الحكم في نهاية الأمر إنْ لم يصر كلهم بروتستنت يسجنون ثمَّ يجلون من أوطانهم مدة حياتهم، وإنْ رفضوا الحكم أو رجعوا من الجلاء بدون الأمر كانوا ملزمين بإلزام عظيم.

١٦ ـ لا يحضر القسيس عند قتلهم ولا عند تجهيزهم وتكفينهم.

١٧ ـ لا يكون السلاح في بيت أحد منهم.

١٨ ـ لا يركب أحد منهم على حصان يكون ثمنه أكثر من خمسين ربية.

QaradawiBooks.com

١٩ ـ إنْ أدَّى قسيس منهم خدمة من الخدمات المتعلقة به يسجن دائمًا.

٢٠ ـ القسيس الَّذي يكون مولده إنكلترا، ولا يكون من ملة بروتستنت، إنْ أقام أكثر من ثلاثة أيام في إنكلترا يعتبر أنَّه غدار ويقتل.

٢١ ـ من أنزل القسيس المذكور من مكانه يقتل.

٢٢ ـ لا تقبل شهادة كاثوليكي في العدالة.

وقتل على هذه القوانين الجورية في عهد الملكة اليصابت مائتان وأربعة أشخاص. كان منهم قسيسون، والباقون من أهل الغنى، وما كان ذنبهم غير أنَّهم أقروا أنَّهم من ملة الكاثوليك ومات تسعون قسيسًا وكبار آخرون في السجن، وأجلي مائة وخمسة أشخاص مدة حياتهم، وضرب كثير منهم بالسياط، وصودروا وحرموا من أموالهم، حتَّى هلكت عشيرتهم، وقتلت ميري المشهورة ملكة أسكات، وكانت بنت الخالة للملكة اليصابت، بسبب كونها من ملة الكاثوليك.

ثم قال في الصفحة الحادية والستين إلى السادسة والستين: «حمل كثير من رهبانهم وعلمائهم بأمر الملكة اليصابت في المراكب، ثمَّ أغرقوا في البحر. جاء عساكرها إلى إيرلاندا ليدخلوا أهل ملة كاثوليك في ملة بروتستنت، فأحرقوا كنائس الكاثوليك وقتلوا علماءهم، وكانوا يصطادونهم كاصطياد الوحوش البرية، وكانوا لا يؤمنون أحدًا وإنْ أمنوا أحدًا قتلوه أيضًا بعد الأمان، وذبحوا العسكر الَّذي كان في حصن سمروك، وأحرقوا القرى والبلاد، وأفسدوا الحبوب والمواشي، وأجلوا أهلها بلا امتياز (أي اعتبار) المنزلة والعمر. ثمَّ أرسل بارلمنت سنة ١٦٤٣م وسنة ١٦٤٤م اللوردات ليسلبوا جميع أموال الكاثوليك وأراضيهم بلا امتياز بينهم، وبقي أنواع الظلم إلى زمن الملك جيمس الأول،

QaradawiBooks.com

وحصل التخفيف في الظلم في عهده، ثمَّ رحمهم الملك سنة ١٧٧٨م، ولكن البروتستنتيين سخطوا عليه، وقدموا معروضًا إلى السلطان من جانب أربعة وأربعين ألفًا من فرقة بروتستنت في ثاني حزيران سنة ١٧٨٠م، واستدعوا أن يبقي بارلمنت القوانين الجورية في حق ملة الكاثوليك كما كانت. لكن البرلمان ما التفتوا إليه، فاجتمع مائة ألف من بروتستنت في لندن وأحرقوا الكنائس، وهدموا أمكنة الكاثوليك. وكان الحريق يرى من موضع واحد في ستَّة وثلاثين مكانًا، وكانت هذه الفتنة قائمة إلى ستَّة أيام، ثمَّ أوجد الملك قانونًا آخر سنة ١٧٩١م وأعطى ملة الكاثوليك حقوقًا هي حاصلة لهم إلى هذا الحين».

ثم قال في الصفحة (٧٣، ٧٤): «ما سمعتم حال جار تراسكول الَّذي هو في أيرلند هذا الأمر محقق: أن بروتستنت يجمعون في كل سنة مقدار مائتي ألف وخمسين ألف ربية، وكراء أكثر المكانات الكبيرة، ويشترون بها أولاد فرقة الكاثوليك الَّذين هم من المساكين المفلوكين.

ويرسلون بهم في العربات إلى إقليم آخر بالخفية، لئلا يرى آباؤهم وأمهاتهم، ويقع كثيرًا أنَّ هؤلاء الأشقياء إذا رجعوا إلى أوطانهم، تزوجوا بأخواتهم أو إخوتهم أو آبائهم أو أمهاتهم للجهل وعدم التمييز» انتهى كلامه.

والظلم الَّذي صدر عن بعض فرق بروتستنت بالنسبة إلى بعض آخر، لا أنقله حذرًا من التطويل، وأكتفي بهذا القدر، وأقول: انظروا إلى هؤلاء الطاعنين على الملة المحمدية كيف ملؤوا ملتهم بالجور والظلم[1]؟! انتهى.

(١) انظر: إظهار الحق (٥٠٩/٢ ـ ٥٢٨).

QaradawiBooks.com

وإنَّ المرء المسلم ليقفّ شعره، ويقشعر جلده، حينما يقرأ هذه الصفحات السود، الَّتي تصور جانبًا من المجازر البشريَّة، والمظالم الدِّينيَّة، الَّتي ارتكبها النَّصارى في حق اليهود، والَّتي ارتكبها المَسِيحيُّون الكاثوليك في حق فئة البروتستانت عند ظهورها، وبعد ظهورها بمئات السنين، والَّتي رد عليهم البروتستانت بمثلها، أو أشد منها حين ظهروا عليهم، وآلت لهم السلطة.

إنَّ هذه الصفحات المظلمة من الإسراف البالغ في سفك الدماء: لم تكتبها أقلام مسلمة، بل سطرتها أقلام مَسِيحيَّة، تتكلم بلغة الأرقام. ومع هذا نجد من المَسِيحيِّين المبشرين والمستشرقين ـ ومنهم البابا بنديكت السادس عشر ـ من يتهم المسلمين بأنَّهم متعصبون، واتهم دينهم إنَّما قام على السيف!

حتى قال بعض أحرار الأوربيِّين: لم يصدق المسيح في نبوءة من نبوءاته، مثل ما صدق في قوله: ما جئت لألقي على الأرض سلامًا، بل سيفًا! إذ لم يعرف التاريخ عن ملة قتل أهلها بعضهم بعضًا مثل ما حدث في الملة المَسِيحيَّة، أو عشر معشاره!

ومن نظر في تاريخ المَسِيحيِّين في مختلف الأطوار، وفي شتَّى الأقطار: تبين لهم: أن فكرة «إبادة المخالفين واستئصالهم»: فكرة أصيلة في ذهنيتهم وتربيتهم الدِّينيَّة، ومواريثهم الثقافية، واستباحة الدماء بالألوف والملايين: أمر هين عليهم، لا يقلق ضمائرهم، ولا يؤرق جفونهم. فلا عجب أن رأينا الأوربيِّين من المَسِيحيِّين الَّذين ذهبوا إلى أمريكا، اجتهدوا أن يستأصلوا أهلها الأصليين من الهنود الحمر، واستحلوا كل حرام من أنواع القتل والإبادة في ذلك، حتَّى أبادوا الملايين منهم بأساليب وحشيَّة لا يقرها دين ولا خلق.

QaradawiBooks.com

كما أنَّ المَسِيحيِّين الَّذين ذهبوا إلى أستراليا فعلوا مثل ذلك بسكانها الأصليين، الَّذين أبادوهم، والمسلمون الَّذين بقوا في إسبانيا (الأندلس) ثمانية قرون أقاموا فيها حضارة شامخة متميزة، استنارت بها واستفادت منها أوربا كلُّها: أُبِيدوا كلُّهم، إمَّا بالإكراه على التنصُّر، أو مواجهة القتل، أو الإجبار على الرحيل في طرقٍ كُلِّها أخطار، ولا عجب أن لم يبق منهم في إسبانيا ديَّارٌ ولا نافخ نار!

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

(ملحق ٦)
مقاومة النَّصرانيَّة للعلم في التاريخ

تحت هذا العنوان كتب الإمام مُحَمَّد عبده يقول:

«لا أجد في التاريخ ذكرًا للعلم والفلسفة بعد ظهور المَسِيحيَّة في مظهر القوَّة لعهد قسطنطين وما بعده، إلَّا في أثناء المنازعات الدِّينيَّة الَّتي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك، وأخرى بجمع المجامع، وثالثة بسفك الدماء، فتخمد شعلة العلم، وينتصر الدين المحض!

وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المَسِيحيَّة وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدِّينيَّة للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المَسِيحيُّون، وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك في الدماء بإغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ، وليس من موضوعنا الكلام فيه.

ولكنِّي أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوربا بعد ظهور الإسلام واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس، واحتكاك الأوربيِّين بالمسلمين في الحروب الصَّلِيبيَّة.

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم، وحملوا إلى النَّاس أخبارًا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة، من أنَّ المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدَّسة، وأجلوا

QaradawiBooks.com

عنها ديـــن التوحيد، ونفوا منهـــا كل فضيلة وإخـــلاص، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترســـة، فلما قفل الغزاة إلـــى ديارهم قصُّوا على قومهم أنَّ أعداءهم كانوا أهل ديـــن وتوحيد ومروءة، وذوي ود ووفاء، وفضل ومجاملة.

ثم كان الخليفة «الحكم الثاني» جعل من بلاده الأندلس فردوسًـــا، كما قال الفيلسوف الأمريكاني، وكان اليهود والنَّصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية، قال بطرس المحترم الشهير: إنَّه رأى كثيرًا من العلماء يأتون إلى تلك البلاد لتلقـــي العلوم الفلكية حتَّى من بلاد إنكلترا، وأولئك الَّذين يسعون إلى طلب العلوم من أي بلاد جاؤوا كانوا يجدون فيها رحبًا وسعة، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعًا للكتب ـ نسخ وتذهيب وتجليد ـ إلخ ما قال.

ثم انتشرت صناعة الورق الَّتي اخترعها العرب، ثمَّ وجدت المطبعة وسهل على النَّاس أن ينشـــروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الَّذين حملوه إليهم من أهالي إسبانيا، ومن حملوه ممَّا جاورها، ثمَّ انساب إلى العلم شيء ممَّا سمَّاه الأوربيُّون فلسفة ابن رُشْد، وعند ذلك اهتمت المَسِيحيَّة بالأمر، وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة النَّاس أو يرد على أســـماعهم ممَّا يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة.

قال دي رومنيس: إن قوس قزح ليست قوسًا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي من انعكاس ضوء الشـــمس فـــي نقط الماء، فجلب إلى روما وحبـــس حتَّى مات، ثمَّ حوكمـــت جثته وكتبه، فحكم عليها وألقيت في النـــار، وقيل في علَّـــة الحكم: إنَّـــه أراد الصلح بين

QaradawiBooks.com

كنيســتي روما وإنكلترا، وأي ذنب أعظم من هــذا الصلح؟ هو أضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشــمس في نقط الماء.

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش:

أنشئت المراقبة على المطبوعات، وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القســيس أو المجلس الَّذي عين للمراقبة، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شــيئًا لم يعرض على المراقب، أو ينشر شيئًا لم يأذن المراقب بنشره، وأُوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتَّى لا ينشر ما فيه شيء يومئ إلى مخالفة العقيــدة الكاثوليكيَّــة، ووضعت غرامــات ثقيلة على أربــاب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيســة «كأن الحكومــة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد: أخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين».

أنشــئت محكمة التفتيــش لمقاومة العلــم والفلســفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته، خصوصًا في جنوب فرنسا وإيطاليا. أنشئت هذه المحكمة الغربيَّة بطلب الراهب تور كماندا.

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام، ففي مدة ١٨ ســنة ـ من ســنة ١٤٨١م إلى ١٤٩٩م ـ حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشــرين شخصًا بأن يحرقوا وهم أحياء، فأحرقوا، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشــهير، فشهروا وشــنقوا، وعلى سبعة وتســعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بعقوبات مختلفة فنفذت، ثمَّ أحرقت كل توراة بالعبرية.

QaradawiBooks.com

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة «المقدسة»؟ وسيلة واحدة: هي أن يحبس المتهم، وتُجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة، إلى أن يعترف بما نسب إليه، وعند ذلك يصدر الحكم، ويعقبه التنفيذ.

قرر مجمع «لاتران» سنة ١٥٠٢م: أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد، وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه، ولعن من ينظر في كلامه شيئًا من الصناعة والعبادة، لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه، وتحلية العقول ببعض أفكاره.

اشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين، طلاب العلم والسعاة إلى كسبه، ونيط بها كشف البدعة، والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها: في المدن، في البيوت، في السراديب، في الأنفاق، في المخازن، في المطابخ، في المغارات، في الغابات وفي الحقول. فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين، عملًا بالقول الجليل: «ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا».

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم، والقسوس في كنائسهم، والأشراف في قصورهم، والتجار بين بضائعهم، والصناع في مصانعهم، والعامة في بيوتهم ومزارعهم، وحيثما وجدوا، وأينما ثقفوا، ويوقفون أمام المحكمة، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم.

قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار النَّاس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبًا لغفرانها).

QaradawiBooks.com

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد، فيكون ممَّا تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته، وما يظهره في أعماله بين أهله. فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئًا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه، رفع أمره إلى المحكمة، فينقض شهاب التهمة عليه. فإذا سئل عن الشاهد الَّذي عول عليه في اتهامه لا يجاب، وإنَّما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد، وهو من أهله حتَّى يعترف.

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوربا ما يخيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه: أن رسول الشؤم يتبعه، وأنَّ السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ومن ورود الفكرة العلميَّة إليه. وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع النَّاس لذلك العهد: «يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيًّا ويموت على فراشه».

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٨٠٨م على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة، منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء.

اضطهاد المَسِيحيَّة للمسلمين واليهود والعلماء عامَّة:

لما كان ابن رشد هو الينبوع الَّذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوربا على زعم القسوس، وكان ابن رشد أستاذًا يتعلم عنده كثير من اليهود، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه، ثمَّ هو مع ذلك مسلم، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معا، فصدر الأمر في ٣٠ مارس (آذار) ١٤٩٢م بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان، وعلى أي حال كان: يجب أن يترك بلاد إسبانيا قبل شهر يوليو (تموز)، ومن

QaradawiBooks.com

رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل، وأبيح لهم أنْ يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول، بشرط ألَّا يأخذوا في الثمن ذهبًا ولا فِضَّة! وإنَّما يأخذون الأثمان عروضًا وحوالات، ومن ذا الَّذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن؟ (يعني أن أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الَّذي تم في يوليو)، وصدر أمر «توركماندو»: ألَّا يساعدهم أحد من سكان إسبانيا في أمر من أمورهم، وهكذا خرج اليهود، تاركين كل ما يملكون، بأرواحهم على أنَّه لا نجاة لكثير منها، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر.

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢م نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (أي المسلمين) من إشبيلية وما حولها، من لم يقبل «المعمودية» منهم يترك بلاد إسبانيا قبل شهر أبريل (نيسان)، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الَّذي وضع لليهود، ولكن وضع للمسلمين شرط آخر، وهو ألا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلاميَّة، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل! فهولاء المساكين نفوا جميعًا إلى القتل، إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع، فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع.

ألا يعجب القارئ إذا رأى أن «برونو» يحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠م، لأنَّه قال بقول الصوفيَّة في وحدة الوجود، وقال: إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة؟ «الحمد لله ربِّ العالَمِين».

ظهر القول بكروية الأرض ـ ذلك الأمر الَّذي عرفه المسلمون، وصار رأيا لهم في أوَّل خلافة بني العبَّاس، ولم تتحرك له شعرة في بدن ـ فأحدث اضطرابًا شديدًا في عالم النَّصرانيَّة، ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه.

QaradawiBooks.com

هل يصدق القارئ أن ما قصده كريستوف كولمبوس من السفر في المحيط الأطلنطي لعله يكتشف أرضًا جديدة، كان من الأمور الَّتي اهتمت لها الكنيسة، وحكم مجمع «سلامانك» بأنَّه مخالف لأصول الدين، ثمَّ أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزستوم، وأوغستين، وجيروم، وغريغوار، وبازيل، وانبروازو، وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة، ولم ينتج هذا العرض شيئًا، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم. قال كريستوف كولمب: «إنَّ الَّذي أوحى إليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد»، من هنا تفهم لِمَ قامت الكنيسة وقعدت؟

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم:

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل: «السلطة للقسوس، والطاعة للعامة»، كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الَّذي يربط ويحل في الأرض والسماء، فهو باطل، تجب مقاومته بكل ما يستطاع! لهذا حكم على غاليلي الَّذي ذهب إلى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم.

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد:

هل تدري ماذا حصل من المقاومة لإدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الآستانة، ثمَّ نقلتها إلى أوربا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١م، فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها، واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك إنكلترا، وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشف طريقة تطعيم الجدري!

QaradawiBooks.com

مقاومة تسهيل الولادة:

أي مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة، حتَّى لا تحس بألم الطلق، اكتشاف أمريكاني رأى حضرات القسوس فيه أنَّه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة الَّتي سجلت عليها في سفر التَّكوين: «إذ جاء في الإصحاح الثالث منه: وقال للمرأة: تكثيرًا أكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين أولادًا».

هذا بعض ما ذكره العلَّامة مُحَمَّد عبده من الوقائع والآثار العمليَّة للأصول المَسِيحيَّة الدِّينيَّة في حياة الشعوب المَسِيحيَّة، ولا سيَّما فيما يتعلق بالعلم والفكر والثقافة، وهي وقائع واضحة الدلالة، ولا تحتاج إلى تعليق.

فأين هذا التاريخ الأسود المظلم الجنبات في مقاومة العلم والفكر، ومحاربة التجديد والابتكار، والإصرار على إبقاء كل قديم على قدمه... ممَّا يحكيه تاريخ المسلمين المشرق: من علوم قديمة تجدد، ومعارف موروثة تهذب، وعلوم جديدة تخترع.

كلُّ ذلك بمباركة علماء الدين الإسلامي وتأييدهم، بل بمشاركة بعضهم مشاركة فعلية في العلوم الطبيعية والرياضيَّة، كما سجل لهم ذلك تاريخ العلم بكل جلاء.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

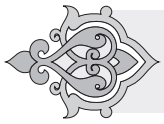

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾	١	٨٨
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾	٢، ٣	٨٨
سورة البقرة		
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾	٧٤	٨٦، ١١٢
﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	١٤٣	٥٨
﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾	١٧٣	٩٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾	١٨٣	٣٨
﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾	١٨٥	٣٨
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾	١٨٦	١٩
﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾	١٩٠	٣٢، ١٠٥، ١٤٠
﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾	١٩١	١٠٥
﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾	١٩٣	٣٢، ١٤٠
﴿ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾	١٩٤	٩٦

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾	٢٠١	٤١
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾	٢٠٨	٨٩
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	٢١٦	٣٢، ٩١، ١٤٥
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾	٢١٧	٩٦
﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾	٢٥٥	٣٣
﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾	٢٥٦	١٤، ٢٩، ٣٠، ٨٤، ١١٤، ١٤٠
﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾	٢٨٥	٦٥
﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾	٢٨٦	١٣١
سورة آل عمران		
﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ﴾	٢٠	٤٨
﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾	٢٨	٨٧
﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	٦٤	٤، ٤٧، ٤٨
﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	١٣٧	٦٩
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾	١٥٩	٨٦
سورة النساء		
﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾	٩٠	١٤٠
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾	١٤٠	١٤٧
سورة المائدة		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾	٢	٩٦، ٩٧

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ ﴾	٨	١٠
﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾	١٣	٨٦، ١١٣
﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ ﴾	٦٤	٥٦
﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ ﴾	٨٢	١٤٨
﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾	٨٣	١٤٨
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ ﴾	٩٥	٩٨
﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾	٩٧	٩٦
سورة الأنعام		
﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾	٣٨	١٠٤
﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾	١٠٤	١٩
﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾	١٢٧	٩٠
﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	١٤٣	٦٦
سورة الأعراف		
﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾	١٥٧	١٣٩
﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾	١٥٨	٤٤
﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾	١٨٠	٨٨، ٨٩
﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾	١٨٥	١٤١
سورة الأنفال		
﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾	٦٠	١٣٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾	٦١	٩٣، ١٠٦
﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾	٦٢	٩٣، ١٠٦
سورة التوبة		
﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾	٦	١٠٦
﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾	٢٩	١٠١
﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾	٣٣	٤٩
﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾	٣٦	٣٢، ٤٨، ٩٧
﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾	١٠٣	٤١
﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾	١٢٨	٤٨
﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾	١٢٩	٤٨
سورة يونس		
﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾	١٠	٩٠
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾	٤٤	٨٨
﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾	٩٩	١١٥
سورة هود		
﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾	٢٨	١١٥
سورة النحل		
﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾	١٢٥	٢٤، ٤٧، ١٣٩
﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾	١٢٦	٤٣

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الإسراء		
﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾	١٥	١٣١ ،١٩
﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾	٧٧	٦٩
سورة طه		
﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾	١٢١، ١٢٢	٤٣
سورة الأنبياء		
﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾	٢٣	٥٩
﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾	٢٨	٣٣
﴿ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾	٤٧	٣٣
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٧	١٣٩ ،٨٧ ،٤٤
سورة الحج		
﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ ﴾	٣١	١٨
﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾	٣٩	١٣٩
﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾	٤٠	١٣٩
﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ ﴾	٥٤	١٤٢
سورة النور		
﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ ﴾	٣٠	٤١
﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ ﴾	٣٥	٨١
﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ ﴾	٥٤	٤٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النمل		
﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾	٦٤	٦٥
سورة القصص		
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾	٤	١٠٤
سورة العنكبوت		
﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾	٤٥	٤١
﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾	٤٦	١٤٧
سورة الروم		
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾	٩	٦٩
سورة لقمان		
﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ﴾	١٧	٤١
سورة الأحزاب		
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾	٥	١٣١
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	٩ ـ ١١	٩١
﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾	٢٥	٩١، ٩٢
﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾	٤٤	٩٠
سورة سبأ		
﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾	٤٦	١٤١

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فاطر		
﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾	٣٢	٤٣
﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ ﴾	٤٣	٦٩
سورة الزمر		
﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾	٥	٧٩
﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾	٥٣	٤٣
سورة غافر		
﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾	١٨	٣٣
سورة فصلت		
﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾	٤٦	١٩
سورة الشورى		
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾	١١	٥٦
﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ ﴾	٤٠	٤٣
سورة الزخرف		
﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	٧٢	١٩
سورة محمد		
﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾	٤	١٠١
سورة الفتح		
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾	١	٩٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾	٢٤	٩٣
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾	٢٨	٤٩
سورة الحجرات		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾	١٣	١٣٨
سورة ق		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾	١٦	١٩
سورة النجم		
﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾	٢٦	٣٣
﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾	٢٨	٥٧
سورة الواقعة		
﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾	٢٥، ٢٦	٩٠
سورة الحديد		
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾	٤	١٩
سورة الحشر		
﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾	٢٣	٩٠
سورة الجمعة		
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾	١٠	٤٢
سورة القلم		
﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	٥٢	٤٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المعارج		
﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾	٢٤	٣٦
سورة المدثر		
﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾	٣٨	١٣١
﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾	٤٨	٣٣
سورة الزلزلة		
﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾	٧	١٩
﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾	٨	١٩
سورة الماعون		
﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾	٥	٣٥
سورة الإخلاص		
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾	١ ـ ٤	٣٢
﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾	٤	٥٦

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

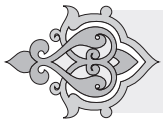

غير مخصص للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أحبُّ الأسماءِ إلى الله عبدُ الله وعبدُ الرحمٰن، وأصدقُ الأسماء حارثٌ وهَمَّام	٩٤
أروني ابني، ما سمَّيتموه؟. قال: قلت: حربا. قال: بل هو حسن	٩٥
أفشوا السلام	٩٠
اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السماوات والأرض	٥
إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف	٨٦
إنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمر كلِّه	٨٦
أنا أولى النَّاس بعيسى ابن مريم	١٤٤
إنَّما أنا رحمة مهداة	٨٧
ب	
بُعثت بالسَّيْف بين يدي السَّاعة	٤٨، ٤٩
س	
السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين	٩٠
ف	
فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر، طهرة للصائم من اللغو والرفث	٣٨

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ل	
لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا	٩١، ١٤٥
لا يشكرُ اللهَ من لا يشكر النَّاس	١١
لولا أنَّ الكلاب أُمَّة من الأمم، لأَمَرْتُ بقتلها	١٠٤
م	
ما دخل الرِّفْقُ في شيءٍ إلَّا زانه، ولا نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شانه	٨٦
من حجَّ ولم يرفُثْ ولم يفسُقْ، رجع من ذنوبه كيوم ولدَتْه أمُّه	٤٠
من حُرِمَ الرفق فقد حُرِمَ الخيرَ كُلَّه	٨٦
من يَحْلُب هذه؟. فقام رجل فقال: ما اسمك؟. قال: مرَّة. قال: اجلس	٩٥
ن	
نعم هو فتح	٩٢
و	
والخيرُ كلُّه في يَدَيْكَ، والشرُّ ليس إلَيْكَ	٥٨، ١٤٣
ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه	٣٤
ي	
يا حنظلة، لو دمتم على الحال الَّتي تكونون فيها عندي لصافحتكم الملائكة	٤٢
يدع الطعام من أجلي، ويدع الشراب من أجلي، ويدع زوجتَه من أجلي	٣٧

* * *

QaradawiBooks.com

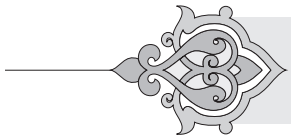

فهرس الموضوعات

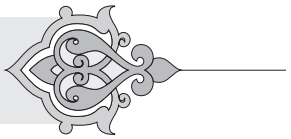

❖ من الدستور الإلٰهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• مقدمة ٧

❖ معركةٌ فُرِضَت علينا ٧

❖ الجزء المُتَعَلِّق بالإسلام من محاضرة البابا ١٣

❖ تمهيد: الكاثوليك والإسلام ١٧

نسينا الماضي وفتحنا صفحة جديدة ٢٣

دوافع البابا إلى التطاول على الإسلام ٢٥

نظرة في قصَّة الإمبراطور البيزنطي ٢٧

البابا وتفسير القرآن ٢٩

❖ ١ ـ هل أتى الإسلام بجديد غير ما في اليهوديَّة والمَسِيحيَّة؟ ٣١

١ ـ في مجال العقائد ٣٢

QaradawiBooks.com

٢ ـ في مجال العبادات والشعائر ٣٣
الصَّلاة ٣٤
الزكـاة ٣٥
الصـيام ٣٧
الحـج ٣٩
٣ ـ الجديد في الأخلاق ٤١
أخلاق معللة مفهومة ٤١
أخلاق وسطيَّة متوازنة ٤١
أخلاق واقعيَّة ٤٣
٤ ـ الجديد في التشريع ٤٣
هل جاء مُحَمَّد بأشياء شريرة ولا إنسانيَّة؟ ٤٦
الله والقوَّة ٤٩

❖ **٢ ـ الإيمان والعقل بين النَّصرانيَّة والإسلام ٥٢**
وقفات تأمُّليَّة مع ما نقله البابا ٥٣
الوقفة الأولى مع البابا ٥٣
الوقفة الثانية مع البابا ٥٥
الوقفة الثالثة مع البابا ٥٨
نصُّ كلام ابن حزم من كتابه «الإحكام» ٥٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

الإسلام والعقل ٦٤

العقل بين القرآن والكتاب المُقَدَّس ٦٤

الإمام مُحَمَّد عبده يردُّ على فرح أنطون ٦٦

الأصل الأوَّل للإسلام: النظر العقلي لتحصيل الإيمان ٦٧

الأصل الثاني للإسلام: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ٦٧

أصل ثالث من أصول الأحكام في الإسلام: البعد عن التكفير ٦٨

أصل رابع في الإسلام: الاعتبار بسنن الله في الخلق ٦٩

أصول النَّصرانيَّة ٧٠

الأصل الأوَّل للنصرانيَّة: الخوارق ٧١

الأصل الرابع للنصرانيَّة: سلطة الرؤساء الدِّينيِّين ٧٢

أثر الأصول المَسِيحيَّة في الحياة العلميَّة والفِكْرِيَّة ٧٣

❖ **٣ ـ نتائج الأصول الإسلاميَّة في الحياة العلميَّة والفِكْرِيَّة للمسلمين** ٧٤

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبيَّة ثمَّ العقليَّة ٧٥

اشتغالهم بالعلوم الكونيَّة في أوائل القرن الثاني ٧٦

إنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة ٧٧

تعانق الدين والعلم في تاريخنا الإسلامي ٧٨

التلاقي بين النقل والعقل ٨٠

QaradawiBooks.com

❖ **٤ ـ الرفق والعنف أو السلام والحرب بين شريعة القرآن وشريعة التوراة** **٨٤**

أولًا: الرفق والعنف أو السلام والحرب في شريعة القرآن **٨٦**

دعوة الإسلام إلى الرفق وكراهيته للعنف ٨٦

دعوة الإسلام إلى السلم وكراهية الحرب ٨٨

الإسلام والسلام من مادَّة واحدة ٨٩

إشاعة كلمة السلام في المجتمع وجعله تحيَّة الإسلام ٨٩

المسلم لا يتمنَّى الحرب ويسأل الله العافية ٩١

القرآن يسمي صلح الحديبية ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ٩٢

الجنوح للسلم إذا جنح العدو إليها ٩٣

كراهة التسمية بـ «حرب» ٩٤

ثلث العام هدنة إجبارية ٩٦

الحج تدريب للمسلم على السلام ٩٧

ثانيا: الرفق والعنف أو السلام والحرب في شريعة التوراة **٩٩**

شرائع حصار وفتح المدن البعيدة في التوراة ١٠٠

شرائع حصار وفتح مدن أرض الموعد ١٠٢

نصوص معبرة عن العنف البالغ من أسفار القوم ١٠٦

❖ **٥ ـ أكذوبة انتشار الإسلام بالسَّيْف** **١١٤**

السيف لا يفتح قلبًا ١١٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قدرة الإسلام على الانتشار السلمي ١١٩

انتشار الإسلام بفضائله وقوته الذاتية ١٢٠

الإسلام دينٌ طيَّار ١٢٤

شهادة غوستاف لوبون ١٢٦

فلسفة القرآن وانتشاره في العالم ١٢٦

توماس أرنولد ينصف الإسلام ١٣٣

- **الملاحـــق ١٣٥**

❖ **(ملحق ١): رد على تصريحات البابا ١٣٧**

بيان من رئيس الاتِّحاد العالمي لعلماء المسلمين

الإسلام دين العقل والرحمة ١٣٧

❖ **(ملحق ٢): بيان آخر للاتحاد بشأن موقف**

بابا الفاتيكان من الإسلام والرسول ﷺ ١٤٦

❖ **(ملحق ٣) : صفحات من مذابح النَّصارى لليهود ١٤٩**

مذبحة الصليبيين في القدس ١٥٣

❖ **(ملحق ٤): بعض ما فعل الكاثوليك بالبروتستانت ١٥٤**

❖ **(ملحق ٥): بعض ما فعل البروتستانت انتقامًا من الكاثوليك ١٦٠**

غير مرخصة للطباعة

نسخة إلكترونية

QaradawiBooks.com

❖ **(ملحق ٦): مقاومة النَّصرانيَّة للعلم في التاريخ** **١٦٧**

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش ١٦٩

اضطهاد المَسِيحيَّة للمسلمين واليهود والعلماء عامَّة ١٧١

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم ١٧٣

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد ١٧٣

مقاومة تسهيل الولادة ١٧٤

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **١٧٧**
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **١٨٧**
- **فهرس الموضوعات** **١٨٩**

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية